رواء

مجلة فكرية دورية

- السلوك الاجتماعي ومحدّداته
- مدخل إلى فهم السلفية
- العمل التطوعي في ميزان القرآن والسنة
- رسالية العلماء

العاملون للإسلام ووسائل الثبات على الحق

العدد الحادي عشر
ربيع الأول ١٤٤٣ هـ
تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢١

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

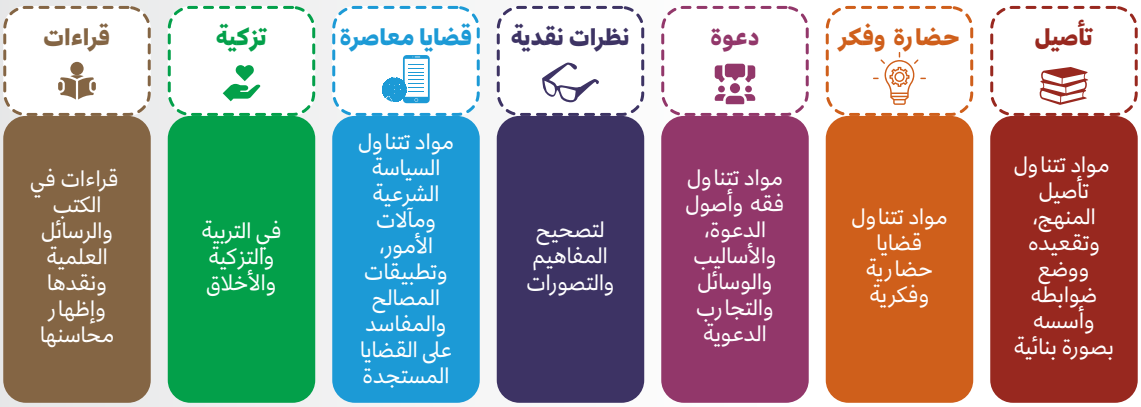

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

العاملون للإسلام ووسائل الثبات على الحق ٢

وقفاتٌ مع مقولة: «لا يُحارَبُ الفِكرُ إلا بالفِكرِ» ٩
أ. فايز الصلاح

حُسن الوفاء والأداء، وحلّ الخلافات: (نَظراتٌ شرعية) ١٥
م.طاهر صيام

مدخل إلى فهم السلفية ٢١
عدة باحثين

السلوك الاجتماعي ومحدّداته ٢٩
د.محمد بن سليمان الفارس

دعاة على أبواب جهنم: توصيف ومآلات ٣٧
أ. موفق شيخ إبراهيم

رسالية العلماء ٤٢
أ. مؤمن لخضر

الإكثار من تلاوة القرآن أم تدبُّره؟ نظرة شرعية تربوية ٤٨
د.عمر النشيواتي

العمل التطوعي في ميزان القرآن والسنة ٥٤
د. مصطفى بوهبوه

قراءة في كتاب: المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، للدكتورة كاميليا حلمي محمد ٦٢
أ. جهاد بن عبدالوهاب خيتي

بأقلام القراء ٧٠

فَلَوْلا نَفَر ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

مدير التحرير
أ. ياسر المقداد

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

التصميم والإخراج الفني
موشنات motionat
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

العاملون للإسلام ووسائل الثبات على الحق

مدخل:

من سنن الله تعالى أن جعل الدنيا دار ابتلاء واختبار، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]؛ وذلك لتمييز العابدين من المعاندين، «فالله سبحانه لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان»[١]، فتارة يبتلي الإنسان بالمسرات وتارة يبتليه بالمصائب، فهو يتقلب بين شكر وصبر، قال تعالى: ﴿وَنَبلوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَينا تُرجَعونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[٢].

والفتن في الأمة من صنوف الابتلاءات، فقد أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال: (هل ترون ما أرى؟)، قالوا: لا، قال: (فإني لأرى الفتن تقع خلالَ بيوتِكم كوقع القطر)[٣].

وقال: (ستكونُ فِتَنٌ، القاعِدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائِمُ فيها خيرٌ من الماشِي، والماشِي فيها خيرٌ من السَّاعِي، مَن تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ، فمن وجدَ منها مَلْجَأً أو مَعاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ)[٤].

أشد الفتن وأخطرها:

تكثر الفتن -لاسيما في آخر الزمان- وتتنوع وتشتد، وأشدها خطرًا وأثرًا هي الفتنة في الدين وعدم الثبات على الحق، قال ﷺ: (بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ الليلِ المظلمِ، يُصبِحُ الرجلُ مؤمِنًا ويُمسِي كافِرًا، أو يُمسِي مؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يَبِيعُ دينَهُ بعَرَضٍ من الدنيا)[٥]، ومع أن عامة الناس

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٦٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٠١).
(٥) أخرجه مسلم (١١٨).

معرّضون للفتن إلا أنَّ فتنة العاملين في مجالات الدعوة والعلم هي الأخطر والأكبر؛ لعظيم أثرهم على الناس؛ فإذا ضلوا كانوا مصدر فتنة وإضلال، كما قال تعالى عن الأئمة المتبوعين المؤثّرين في الناس: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال ﷺ: (إن أخوفَ ما أخافُ على أمتي كلُّ منافق عليمِ اللسان)[١].

عامة الناس معرضون للفتن إلا أنَّ فتنة العاملين في مجالات الدعوة والعلم هي الأخطر والأكبر؛ لعظيم أثرهم على الناس؛ فإذا ضلوا كانوا مصدر فتنة وإضلال

أسباب الفتنة في الدين:

قد تصيب الفتنة العاملين للدين من أهل الدعوة والإصلاح كما تصيب غيرهم، وتنحرف بهم عن جادة الصواب، ومن أهم أسباب ذلك:

١- التكبر على الحق أو الخلق:

بأن يصيب الإنسانَ اغترارٌ بعلمه أو عمله أو مكانته فيظن أنّ له مزية على غيره، أو أنه وصل لمرحلة يقرر فيها المسائل بمعزل عن نصوص الشريعة وأحكامها، أو أنه أصبح حاكمًا عليها، أو أنه مستغن عن فضل الله بذكائه وقدراته.

وقد كانت فتنة إبليس من هذا النوع؛ إذ تكبّر عن الحق عندما أبى الامتثال لأمر الله تعالى بالسجود لآدم، وتكبّر على آدم عليه السلام عندما رأى نفسه خيرًا منه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقد حذّرنا الله سبحانه وتعالى من هذا الصنف من الافتتان، وضرب فتنة عالمٍ من علماء بني إسرائيل مثالاً لذلك، عندما اغترَّ بعلمه وبما أعطاه الله من إجابة الدعاء، فظنَّ أنَّه قادرٌ على الوقوف في وجه نبي الله موسى عليه السلام والدعاء عليه! قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «فدلت الآية لمن تدبرها على ألّا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه، إذ لا يدري بما يختم له...»[٢].

«إنه مشهد من المشاهد العجيبة... إنسان يؤتيه اللّه آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا... ها هو ذا ينسلخ من آيات اللّه ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضًا للشيطان لا يَقِيه منه واقٍ، ولا يحميه منه حامٍ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.

﴿ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾. ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخًا. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان...

﴿ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وهل أسوأ من هذا المثل مثل؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟»[٣].

٢- الحسد:

قد يصيب النفس البشرية من الأمراض والعلل ما يحرفها عن جادة الصواب، ومن أخطرها: حسد الآخرين على ما هم عليه من تفوق في علم، أو تأليف وتصنيف، أو مكانة، أو أتباع وتلاميذ، ونحو ذلك.

(١) أخرجه أحمد (١٤٣).
(٢) تفسير القرطبي (٣٢٣/٧).
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١٣٩٦/٣-١٣٩٧).

والحسد بين العاملين للإسلام موجود منذ القدم، حتى قيل: «هلاكُ العلماء بحسدهم»[١].

ومن أعظم أسباب الحسد: ما يقع بينهم من التنافس، والرغبة في الانتصار للنفس لا للحق؛ مما يدفعهم لركوب أنواع من الباطل، منها:

- الاستقواء بالسلطة السياسية في الخصومة مع الآخرين، والسعي بالوشاية بهم للسجن أو القتل أو الإبعاد.
- الاستعانة بالسلطان لفرض المذهب ونشره حتى لا يخالفه في ذلك أحد.
- تنفير الناس من الدعاة الآخرين بتشويه السمعة والاتهام بقبيح الأوصاف، حتى وصل الحال بالبعض إلى السب على المنابر، وفي الدروس العلمية، وتخصيص مؤلفات ومنتجات علمية في ذلك.
- العمل على منع المنافسين من التعليم والتأليف بالسعاية لدى السلطان أو تشويه سمعتهم بين الناس.

ويستعينون على ذلك بالكذب والافتراء، أو تحميل الكلام والمواقف ما لا تحتمل وتفسيرها على أسوأ المعاني والمقاصد.

وقد حمل التاريخ القديم والمعاصر من أمثلة هذا البغي الناتج عن الحسد أسوأ الأمثلة وأقبحها مما يتنزه عنه عامة الناس فضلاً عمن يدعي أنه يعمل لخدمة الإسلام وأهله.

حَمَلة الدّين ينتظر منهم تهذيب نفوس الناس وإصلاحها، والزهد فيما بأيديهم من متاع الدنيا، والانشغال بالآخرة، فإذا تخلوا عن مهمتهم ونافسوا الناس على الدرهم والدينار، وفشا فيهم الجشع والطمع؛ فقدوا مكانتهم وتأثيرهم، واستحالوا مثالاً سيئًا لاستغلال الدين للدنيا، فأفسدوا وأضلوا

٣- التنافس على الدنيا:

بما فيها من مال ومتاع وجاه ورياسة، وقد حكى الله تعالى لنا جانبًا مما وقع فيه مَن قبلنا، وأن تفرقهم وبغيهم على بعض إنما كان بسبب الافتتان بالدنيا، فقال تحذيرًا من التشبه بهم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال أبو العالية: «بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضًا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس»، قال الطبري: «إنهم أتوا ما أتوا من الباطل على علم منهم بخطأ ما قالوه، وأنهم لم يقولوا ذلك جهلاً منهم، ولكنهم قالوه واختلفوا فيه تعديًا من بعضهم على بعض، وطلبَ الرياساتِ والملك والسلطان»[٢].

لذا جاءت النصوص الشرعية محذِّرةً من الاغترار بالدنيا والافتتان بها، كقوله ﷺ: (فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[٣].

وذلك لأن حملة الدين ينتظر منهم العمل على تهذيب نفوس الناس وإصلاحها، والزهد فيما بأيدي الناس من متاع الدنيا، والانشغال بأمور الآخرة، فإذا تخلوا عن مهمتهم تلك، ونافسوا الناس على الدرهم والدينار، وفشت فيهم أخلاق الجشع والطمع، فقدوا مكانتهم وتأثيرهم، بل ربما استحالوا مثالاً سيئًا لاستغلال الدين للدنيا، فأفسدوا وأضلوا.

وهذا المسلك الخطير حذَر منه النبي ﷺ فقال: (من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار)[٤]. يقول الإمام الآجري: «فمن طلبه للفخر والرياء، والجدل والمراء، وتأكَّلَ به الأغنياء، وجالس به الملوك وأبناء الملوك، لينال به الدنيا فهو ينسب نفسه إلى أنه من العلماء، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء، فتنةٌ لكل مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء»[٥].

(١) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني (٦٥/١).
(٢) تفسير الطبري (٢٧٧/٦).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤).
(٥) أخلاق العلماء، للآجري، ص (٨٣).

وقد ثبت في الحديث أن من أول من تسعر بهم النار: رجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ليقال: عالم، أو قارئ[١].

> «كم من عالم يدخل على الملك ومعه دينه، ويخرج وليس معه منه شيء، فلا جعل الله مصيبتنا في ديننا»
> الفضيل بن عياض

٤- فتنة الحكم والسلطة:

للسلطة والحكم سحر وبريق لا تخطئه العين، ولا تكاد تنجو من آثاره نفس بشرية؛ لذا جاءت النصوص الشرعية بالتحذير من التشوف لتولي المناصب والسعي إليها، كما ورد التشديد على أهل العلم خاصة في عدم الدخول على الحكّام لغير النصيحة لهم، أو قبول أعطياتهم ومناصبهم؛ لما يسببه ذلك من تغير نفوسهم، وخضوعهم لهم؛ مما يجعلهم تابعين لهم، ويعرضهم للسكوت عن ظلمهم وباطلهم، أو إفتائهم بما تشتهي أنفسهم.

قال ابن رجب: «وسبب هذا ما يُخشى من فتنة الدخول عليهم؛ فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيدًا عنهم أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم؛ فإذا شاهدهم قريبًا مالت النفس إليهم؛ لأن محبة الشرف كامنة في النفس، والنفس تُحَسِّن له ذلك، ولذلك يداهنهم ويلاطفهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولا سيما إن لاطفوه وأكرموه، وقَبِل ذلك منهم»[٢].

وقال ابن المبارك: «إن سفيان كان يقول: إن هؤلاء قد أوتوا من الدنيا ما ترى، فإذا دخلت عليهم فرأيت برًا من هاهنا، ولطفًا من هاهنا، وتكرمة من هاهنا، ووسادة من هاهنا، ومرفقة من هاهنا، فأي قلب يحمل هذا لا يميل إليهم؟!»[٣].

وقال الفضيل بن عياض: «كم من عالم يدخل على الملك ومعه دينه، ويخرج وليس معه منه شيء، فلا جعل الله مصيبتنا في ديننا»، فقلنا: وكيف ذاك؟ قال: «يصدقه في كذبه، ويمدحه في وجهه»[٤].

وقال ابن الجوزي ممثلاً حالات الضعف وموانع النصيحة الصادقة في الدخول على السلاطين: «الدخول على السلاطين خطر عظيم؛ لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم، أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم، وقد كان سفيان الثوري -رضي الله عنه- يقول: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم»، وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم»[٥].

ومن الفتن المعاصرة: فتنة دخول عدد من العاملين لخدمة الإسلام في الحكومات القائمة على الظلم والفساد ومشاركتها أعمالها بنيّة الإصلاح وخدمة الناس، لكنّ بعضهم يتحول إلى أداة من أدوات منظومة الحكم القائمة نتيجة غياب الوعي المطلوب في مثل هذه المهمّات العسيرة، وغياب اليقظة الكاملة للمكائد المحيطة مع ضعف المقاومة الداخلية للشر ومنطلقاته الخفية، فيجدون أنفسهم محصورين بأطر معينة لا يستطيعون تجاوزها، وصلاحيات لا يملكونها، فيضطرون تحت ضغط الواقع إلى تقديم التنازلات تلو التنازلات والتي سرعان ما تصل إلى الثوابت، ويدافعون عن النظام بعد أن كانوا يعارضونه؛ لأنهم صاروا جزءًا منه، مما يضطرهم للقبول والصمت عن أخطاء ومظالم كثيرة، ثم ما إن يلحق بهم الفشل أو الهزيمة -المرتب لها مسبقًا- حتى تبدأ فتنة أخرى برمي الإسلاميين ومشروعهم بالفشل وعدم القدرة على الحكم وعدم صلاحيته لهذا الزمان، ثم سقوط الأحزاب والجماعات التي ينتمي لها هؤلاء -بما تحمله من اسم ومشروع إسلامي- بسبب اصطفافها مع الظلمة والفاسدين.

فهؤلاء بدلاً من أن يكون اشتراكهم في الحكم أداة للإصلاح أصبح أداة للطعن في الإسلام وتشويه سمعته، وتلميع صورة هذه الأنظمة.

«وأصحاب السلطان يَستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلّموا في جانب ما أو أمر من الأمور فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) رسالة: شرح حديث (ما ذئبان جائعان) لابن رجب، ص (٨٦).
(٣) أخبار الشيوخ، للمَرُّوذي، ص (٥١-٥٢).
(٤) المرجع السابق، ص (٤٣).
(٥) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص (١٠٩).

أن استمرار المساومة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها.

والتسليم في جانب -ولو ضئيل- من جوانب الدعوة تكسب أصحاب السلطان إلى صفها، هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون في دعوتهم، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرًا»[1].

مما يعين في الثبات على الحق:

١- عدم التنازل عن المبادئ إلى أنصاف الحلول:

وعدم الاستجابة لاستدراج المتربصين والمخادعين لتحصيل شيء من المنافع أو المصالح الموهومة، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

قال سيد قطب: «هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ﷺ، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا، محاولة إغرائهم لينحرفوا -ولو قليلاً- عن استقامة الدعوة وصلابتها ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة.

ومن حَمَلة الدعوات مَنْ يُفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينًا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية إنما يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق.

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها، ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق.

وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة، لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء، والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها، فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغُر والذي يسكت عن طرف منها مهما ضَؤل، لا يمكن أن يكون مؤمنًا بدعوته حق الإيمان، فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيها فاضل ومفضول وليس فيها ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه.

وهي كلّ متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه. كالمُرَكَّبِ يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره»[2].

٢- عدم الركون لأهل الضلال والانحراف:

والركون هو الميل إليهم وموافقتهم على ضلالهم وانحرافهم، قال تعالى في معرض الامتنان على النبي ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

قال البيضاوي: «معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خداعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعتك من أن تتقرب من الركون فضلاً عن أن تركن إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هَمَّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه»[3].

قد يبدو المؤمنون الصادقون في عين الداعية ضعفاء محتاجين، لا يؤبه لهم في المجتمع، يشعر بعبئهم عليه أكثر من إعانتهم له، مع أنهم مستعدون للتضحية والتحمل والبناء، وقد يرجو الداعية أن يتبعه بعض الوجهاء والأثرياء وأصحاب المكانة المرموقة، مع بُعدهم الشديد

٣- التأسي بأهل الحق والاستقواء بهم:

المسلم ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، يُرشِدونه وينصحونه، ويردونه عن الخطأ إن وقع فيه، قال تعالى موجهًا نبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢٢٤٥/٤).
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) تفسير البيضاوي (٢٦٣/٣).

عواقب تمييع الدين بشبهة الدخول مع الحكام

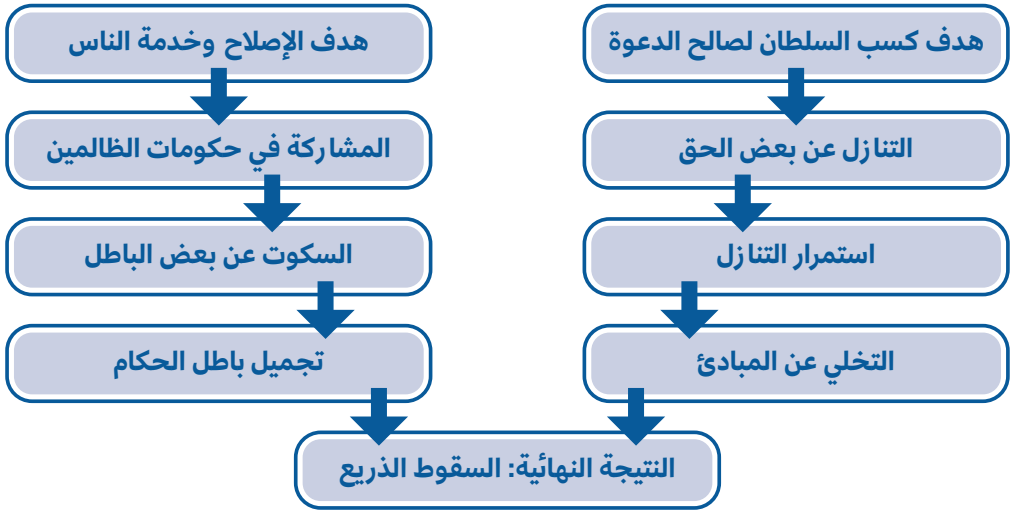

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فقد يبدو المؤمنون الصادقون في عين الداعية ضعفاء محتاجين، لا يؤبه لهم في المجتمع، يأخذون منه أكثر مما يقدمون له، يشعر بعبئهم عليه أكثر من إعانتهم له، مع أنهم مستعدون للبذل والتضحية والتحمل والبناء، وقد يرجو الداعية أن يتبعه بعض الوجهاء والأثرياء وأصحاب المكانة المرموقة، مع أنهم قد لا يقتربون، ولو اقتربوا فقد يفسدون الدعوة، ولذلك جاء التوجيه في الآية الكريمة بالتزام هذه الثلة الصادقة المقبلة وإن بدت ضعيفة.

ومجمل كلام أهل التفسير في معناها: احبس نفسك يا محمد وثبتها مع من يقيمون على طاعة الله وعبادته، ولا تجاوزهم إلى غيرهم من أهل الدنيا طلبًا لزينتها، ولا تحتقرهم عيناك إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة رغبة في مجالسة أهل الشرف والغنى، «ولا تكن مطيعًا ولا محبًا بمن شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا وفرط في حياته وأضاعها، ولا تكن محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه»[1].

وقد كانت وصية النبي ﷺ لأمته في آخر الزمان لزوم الجماعة، ففي حديث حذيفة بن اليمان حينما سأل النبي ﷺ: «فما تأمرني إن أدركني ذلك؟» قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (فمن أحَبّ منكم أن ينال بُحْبُوحةَ الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد)[3].

٤-الصبر وعدم استعجال النتائج:

فمع الابتلاءات الكبيرة في هذا العصر، وطول مدّتها وشدّتها قد تُصاب بعض النفوس بالضجر أو التذمُّر، ولا تصبر على طول الطريق، وتستبطئ النصر، فتتعجَّل النتائج؛ مما يوردها المهالك.

والصبر على تحقق النتائج وقطف ثمار الدعوة هو منهج الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

(١) تفسير ابن كثير (١٥٤/٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٣) أخرجه أحمد (١٧٧).

وهو وصية الله لرسوله ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ولعباده وأوليائه كافةً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وهو سبب النجاح وطريق الفلاح: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

> **الدعاء رفيق الداعية، فهو يسأل الله العون على دعوة الناس وهدايتهم للحق، ويسأله العصمة من الزلل، والثبات في وجه الفتن والمصاعب**

٥- الدعاء:

الذي هو صلة العبد بربه، وهو خط الدفاع الأول والأخير للمؤمن، إذ تحيط بالمؤمن فتن الليل والنهار، ويحاصره الأعداء من داخل الصف ومن خارجه، وقد لا يوفق في بعض اجتهاداته، بل قد يقع أسيرًا لبعض أخطائه وزلاته، فيكون الدعاء هو حبله الأخير الذي يناجي فيه ربه، فيجدِّد عزيمته ويطلب من ربه الحول والقوة على مواصلة الطريق، ويسأله الإعانة في بذل الأسباب والتوفيق في بلوغ الغايات.

والدعاء رفيق للداعية في كل حال، فهو يدعو الله أن يستجيب الناس لأمر ربهم وهدي نبيهم ﷺ، كدعاء إبراهيم وإسماعيل لهذه الأمة العظيمة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهو يدعو لنفسه ويسأل الله لنفسه الرحمة والهداية، ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، ويدعو الله أن يثبته ويعصمه في الفتن والمصاعب، كدعاء سحرة فرعون بعد أن آمنوا وأشرقت نفوسهم للحق وهددهم فرعون بالتنكيل بهم فسألوا الله التثبيت والإعانة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وختامًا:

للثبات على الحق أثمانٌ باهظة تتمثل في تشويه السمعة، والسجن والتضييق، والإبعاد والنفي، ونقصان ذات اليد، وقلة الأتباع والأنصار في بادئ الأمر، لكن العاقبة النهائية للثبات عظيمة تتمثل في تحقيق النصر المادي على الأعداء، وتحقيق العلو المعنوي عليهم، وهذا مشاهد في زماننا هذا كما عرفناه في سير الأنبياء والصالحين قبلهم.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[1].

(١) الوابل الصيب، لابن القيم، ص (٤٨).

وقفاتٌ مع مقولة: «لا يُحارَبُ الفِكرُ إلا بالفِكرِ»

أ. فايز الصلاح (*)

مما يشيع اليوم في ساحات النزال الفكري والحوار القيمي مقولات من قبيل حصر مواجهة الرأي بالرأي، والفكر بالفكر، وتجريم ما عدا ذلك، حتى صارت كالمسلَّمات عند الكثير من أهل هذا العصر، فهل هذه الإطلاقات صحيحة؟ وهل تصح مواجهة الرأي بغير الرأي؟ وما ضوابطها؟ هذه المقالة تتناول هذه المسألة بشيء من التفصيل.

مدخل:

يعدّ الفكر -بما يتناوله من معارفَ كونية تتعلّق بالعالم والإنسان وعلوم نظريةٍ وتجريبيةٍ- من أهمّ مقومات الحضارة، وأُسس بنيانها؛ لكونه يمثّل الأرضية المبدئية والأساس العقدي الذي يقوم عليه الاجتماع البشري والعمران الحضري، وما يتولّد عنهما من حراك ونهوض وازدهار.

وبقدر ما يكون هذا الفكر مبنيًا على أصول صحيحة ومنضبطة؛ فإنّ المعارف والعلوم التي تقوم عليه تكونُ بعيدةً عن الخطأ والانحراف، والعكس صحيح؛ لذا كان ميدانُ تميّز الأمم وتنافسها وصراعها الأكثر أهميّة: هو مجال الفكر ومنتجاته؛ فجنَّدت نفسها وأتباعها لخوض غمار معارك بسط الغلبة الفكرية والعلمية على الأمم الأخرى، وإخضاعها لها بشتى الطرق.

وإنّ من أهم ما يميز العصر الحالي كثرةُ الضخ الفكري والسيلان المعرفي الجارف، مع تنوّعه واختلافه الشديد، وسهولة وصوله لكافّة شرائح المجتمع، وتعاظم التأثر والتأثير به لتنوع الأدوات الإعلامية التي تخدمه، مما يستدعي اليقظة وتوخّي الحرص والتدقيق، والحذر مما لا يناسب ديننا وثقافتنا.

الردّ العلمي على الشبهات الفكرية منهج شرعي:

الأفكار المخالفة بما تحمله من عقائد ومعلومات خاطئة، وبما تثيره من شبهات وشكوك في مختلف أمور الدين والحضارة؛ لها أثر خطير على معتقدات

(*) ماجستير في الشريعة، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

الفرد والمجتمع، فهي تهدّد صفاء الدين والفكر ونقاءه، وقد تصل بالمسلم للخروج من الملّة ومفارقة دينه، لذا كان لابدّ من كشف ما تحويه من أخطاء ومغالطات وجهل، وهذا لون من ألوان نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالجهل خطره كبير يؤدي إلى الانحراف عن السبيل والابتداع في الدين، لذا قال عبدالله بن مسعود ﷺ لمن ابتدع: «ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم، وعلّموا من أنتم أعلم منهم»[1].

والأصل في المنهج الشرعي في التعامل مع الشبهات الفكرية: الردّ عليها بالحجة والبرهان، وكشف أخطائها، وهذا هو سبيل الله وصراطه المستقيم وهديه المبين؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ الإعذار وإقامة الحجة، ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (... ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك بعثَ المبشِّرين والمنذِرين...)[2] الحديث. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

> **الأصل في المنهج الشرعي للتعامل مع الشبهات الفكرية: الردّ عليها بالحجة والبرهان، وكشف أخطائها، وهذا هو سبيل الله وصراطه المستقيم، فقد أقام الحجة، وناقش المخالفين بالدليل والبرهان، وعظَّم أمر العلم، ونعى على الكفار أنهم يجادلون بالباطل ولا يخضعون لسلطان العلم**

ومن هنا فقد أقام الله الحجة على العباد، وناقش المخالفين من أهل الكتاب والمشركين والملاحدة والمنافقين بالدليل والبرهان، وعظَّم أمر العلم، ونعى على الكفار أنهم لا يخضعون لسلطان العلم ويجادلون بالباطل من غير هدى ولا كتاب منير، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

منهج النصوص الشرعية في الردّ على الشبهات[3]:

تولّى الوحي الردّ على شبهات المشكّكين والطاعنين في رسالة محمد ﷺ، وقد امتاز منهجه بالشمول والكمال، ومن أهمّ معالم هذ المنهج ما يلي:

١. الدقّة في عرض شبهات المشككين والطاعنين كما جاءت عنهم، مع الأدلّة التي يستندون إليها.
٢. إبطال الشبهة والردّ عليها بتفصيل وشمول، يتضمن إبطال ما ينبني عليها من أقوال وشبهات.
٣. التنويع في الردّ على الشبهات بين الأصول الشرعية الثابتة والأدلة العقلية والحسّية والكونية.
٤. مراعاة الردّ لطبيعة الشبهة وحال قائلها من حيث الأسلوب والهدف، ونحو ذلك.

ومن هدايات النصوص الشرعية في التعامل مع المخالف أثناء الردّ على شبهاته:

١. الحرص على هداية المخالف وردّه إلى الحق، ولذلك أصبح هذا الرسول العظيم ﷺ بحقّ كما وصفه ربه سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
٢. ما ينبني على ذلك من حسن التعامل معه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].
٣. الأمر بالإعراض عن الجاهلين المعاندين الذين يجادلون بغير هدى ولا هدف، كما قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وصولاً إلى هجرهم وعدم الجلوس معهم؛ زجرًا لهم وحماية للمجتمع من شبهاتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

(١) شرح السنة، للبغوي (١٠/٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٦).
(٣) ينظر: منهج القرآن الكريم في الرد على الشبهات، خصائصه وقواعده، د. مي الهدب، مجلة علوم الشريعة، العدد (٨٤)، ومواقف من السيرة النبوية في التعامل مع المخالفين، د. عابد السفياني، مجلة البيان، عدد (٣٦٥).

مقاصد الشريعة في مواجهة الأفكار الباطلة والمنحرفة

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد أدّى هذا المنهج الواضح الصريح الحازم الرحيم إلى إبطال شُبه المشككين والمعاندين، وحماية المجتمع من ضلالاتهم وأخطائهم، مع تقديم النصيحة لهم مما كان له أثر في رجوع فريق منهم للحق وهدايتهم.

> **جهود أهل العلم في حوار المخالفين والرد على شبهاتهم تتفوق على ما عند الأمم الأخرى في تحرّي الصدق في النقل عن المخالف ونسبة الأقوال له، وتوخّي العدل معه، حتى أصبحت منارًا للمقتدين، ومنهجًا يُدرَّس في الردّ على المخالفين**

جهود أهل العلم في الردّ على الشبهات:

اقتفى أهل العلم طريقة الوحي في الردّ على الشبهات، فناقشوا الأقوال، وردّوا على الأخطاء، وعقدوا الحوارات، وأقاموا المناظرات، وصنّفوا التصانيف الكثيرة، التي امتازت عن مثيلاتها مما يوجد لدى الأمم الأخرى فيما يتعلّق بالمناقشات والردود بتحرّي الصدق في النقل عن المخالف ونسبة الأقوال له، وتوخّي العدل معه، حتى أصبحت منارًا للمقتدين، ومنهجًا يُدرَّس في الردّ على المخالفين، وقد بلغت من العمق والشمول وتقصّي شبهات المخالفين والمبتدعة أنّه لا تكاد توجد شبهة معاصرة إلا وفي كلام السلف أصول للرد عليها.

وقد كان للعلماء جهودهم في الردود العلمية على جميع المخالفين من هذه الأمة من أهل البدع كالجهمية والمعتزلة والرافضة والخوارج، ومن غير هذه الأمّة من أتباع الديانات الأخرى كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوسية والملاحدة، وشملت الردودُ والمناقشاتُ في العصر الحاضر: المذاهبَ والتيارات الفكرية المعاصرة كالشيوعية والعَلمانية.

وقد امتازت تلك الردود والمناظرات والنقاشات بالقوة، والصراحة، مع اليقين من الحقّ، وعدم خشية الخوض في الردّ على أيّ انحراف أو شبهة، مع الحرص على حماية المجتمع من آثار أهل البدع والضلالات والتحذير منهم، ومن الأخذ عنهم، والاختلاط بهم.

وكل هذه الجهود منذ عهد الصحابة إلى تاريخنا هذا تندرج تحت الجهاد العلمي البياني.

مقولة «الفكر لا يُحارب إلا بالفكر»:

يُفهم من أسلوب الحصر في هذه المقولة أن الفكر يقابل بالفكر، ولا يتعداه إلى غيره. فهل هذا الكلام على إطلاقه؟ فلا تُقابَل جميع الأفكار بما فيها الباطلة والمنحرفة ولا تحارب إلا بالفكر؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من استحضار مقاصد الشريعة في مواجهة الأفكار الباطلة والمنحرفة، ويمكن جمعها في مقاصد ثلاثة:

* الأول: تبيين الحق لأصحابها ورفع الجهل عنهم رجاء هدايتهم، ومن هنا ذهب جمهور العلماء إلى وجوب استتابة المرتدّ لعله يتوب ويرجع عن كفره.
* الثاني: الحفاظ على نظام المجتمع وأمنه وطهارته، وحماية أفراده مما يفتنهم عن دينهم أو يلبّس عليهم، والناس ليسوا سواء في حصانتهم من الشبهات والشهوات.
* الثالث: تعظيم شرع الله وحفظه من العبث أو الاستهزاء أو التنقص.

وعليه: فإن «الرأي» أو «الفكر» الذي يفرّق الأمّة ويهدّد استقرارها، أو يفتن الناس عن دينهم ويصدّهم عن سبيل الله، أو يكون انسلاخًا عن أحكام الشريعة الإسلامية ونقضًا لها، أو يتعدّى على مقدساتها وكتابها ونبيها؛ فهو خارج عن حرية الفكر. وإذا لم يرجع أصحابها عن ضلالتهم بالفكر والحجة والبرهان فيتوبوا ويصلحوا ويبيّنوا؛ فلا بدّ من التصدي لهم لمنعهم من بثّ أفكارهم، بل ومعاقبتهم عليها؛ تحقيقًا لمقاصد الشريعة الغراء.

من مقاصد الشريعة في مواجهة الأفكار الباطلة والمنحرفة، بيان الحق لأصحابها ورفع الجهل عنهم رجاء هدايتهم، والحفاظ على نظام المجتمع وأمنه، وحماية أفراده مما يفتنهم عن دينهم، وتعظيم شرع الله وحفظه من العبث أو الاستهزاء أو التنقص

ومن هنا يتبيّن أنّ مقولة «الفكر لا يحارب إلا بالفكر» توافق الحقّ من وجه، وتخالفه من وجه:

فأمّا موافقتها للحق: فمن جهة أنّ الفكر المنحرف يجب مواجهته وتفنيده بالحجّة والبرهان.

وأمّا مخالفتها للحق: ففي إيهامها قصر مجابهة الفكر الباطل على الفكر فقط، مهما كان خطره وضرره على الأفراد والمجتمع، وأن يُترك دعاة الأفكار المنحرفة ينفثون سمومهم في الناس دون رادعٍ؛ بحجّة حرّية الفكر والرأي!

«الرأي» أو «الفكر» الذي يفرّق الأمّة ويهدّد استقرارها، أو يفتن الناس عن دينهم ويصدّهم عن سبيل الله، أو يكون انسلاخًا عن أحكام الشريعة الإسلامية ونقضًا لها، أو يتعدّى على مقدساتها وكتابها ونبيها؛ فهو خارج عن حرية الفكر

بل الحقّ أنّه مع التصدّي لشبهاتهم الفكرية وتفنيدها فإنّه لابدّ من زجرهم ومعاقبتهم؛ دفاعًا عن الحرمات، ولا يعدّ هذا ضعفًا عن مقارعة الحجّة بالحجّة، فإنّ علماء الأمّة من الصحابة ومن بعدهم لم يضعفوا أو يعجزوا عن شبهة أو بدعة، بل واجهوا جميع ذلك بعلم راسخ، وعزم واثق، ففنّدوها وبيّنوا تهافتها، لكن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وتأييد سلطان الحجّة بسلطان الحزم لإقامة الدين وصيانته أصل متواتر في الكتاب والسنّة والسياسة الشرعية النبوية وأقوال الصحابة ومَن بعدهم، ويكفي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فبيّنت الآية أنّ قيام الدين التامّ لا يكون إلّا بسلطان العلم والبيان، والحديد والميزان، قال البقاعي في «نظم الدرر»: «فإنّ مصالح الدين مِن غير هَيبة السلطان لا يمكن رعايتُها»[1].

الإسلام ليس بدعًا من الأنظمة:

لكل مجتمع مبادئه وأسسه التي يقوم عليها، وقوانينه وأنظمته التي تحافظ عليه من الضعف أو الانهيار، ولا يوجد مجتمع أيًا كان يسمح بأن يُطعن في ثوابته وأسسه، أو تُقوَّض.

فهذا الذي بيّناه من موقف الشريعة من عقوبة المخالف، لا ينفرد به الإسلام والمسلمون، بل هو من المسلّمات عند كل الشعوب والدول، إذ نجدها تتصدّى للأفكار التي تراها مناقضة لمبادئها وقيمها، وتهدّد مجتمعاتها، وتعدّها من الجرائم التي يعاقب عليها القانون، كإطلاق العبارات العنصرية، والتحريض على العنف، وإثارة النعرات بين الناس، بل حتى مجرد اتخاذ موقف مناهض للدولة من حدث تاريخي، وكلها مسائل فكرية بالأصل!

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١٩/ ٣٠٢).

منهج النصوص الشرعية في الردّ على الشبهات

١ الدقّة في عرض شبهات المشككين والطاعنين كما جاءت عنهم، مع الأدلّة التي يستندون إليها

٢ إبطال الشبهة والردّ عليها بتفصيل وشمول، يتضمن إبطال ما ينبني عليها من أقوال وشبهات

٣ التنويع في الردّ على الشبهات بين الأصول الشرعية الثابتة والأدلة العقلية والحسّية والكونية

٤ مراعاة الردّ لطبيعة الشبهة وحال قائلها من حيث الأسلوب والهدف، ونحو ذلك

فالقول بأنّ الفكر لا يُحارب إلا بالفكر أكذوبةٌ لا يؤمن بها أحد بهذا الإطلاق[١]. لكن -لحال الضعف الذي يعيشه المسلمون- يُراد تنزيلها حصرًا على الأفكار المناهضة والمناقضة لأصول الدين الإسلامي، والموجّهة ضد علمائه ودعاته، ويراد منا نحن المسلمين خاصةً أن نقابل الأفكار التي تناقض أصول ديننا وتهدّد استقرار مجتمعاتنا بالفكر والحوار فقط، وألا نعاقب عليها!! مع أنّ هذه الأفكار -كالعلمانية والشيوعية والقومية وغيرها- لم تنحصر أبدًا في دائرة الفكر المجرّد، بل ظهرت آثارها الوخيمة في مجتمعاتنا واكتوى بنارها المسلمون، على يد الأجنبي أو أذنابهم من أبناء جلدتنا.

> **موقف الشريعة في عقوبة من يطعن في ثوابته وأسسه ويخرق أنظمته وقوانينه، لا ينفرد به الإسلام والمسلمون، بل هو من المسلّمات عند كل الشعوب والدول، فهي تتصدّى للأفكار التي تراها مناقضة لمبادئها وقيمها، وتهدّد مجتمعاتها، وتعدّها من الجرائم التي يعاقب عليها القانون**

حرية الفكر لا حرية الكفر:

فإن قيل: أليس هذا التصرف الخشن عدوانًا على حرية الفكر؟ فيقال: هذا كلام خطابي عاطفي، لا محلَّ له في ميزان النقل والعقل والإجماع.

فالإسلام يدعو إلى حرية الفكر لا إلى حرية الكفر، فقد حضَّ الإسلام على الفكر والتفكّر في آيات الله الكونية والشرعية، وعدّ ذلك من العبادات الجليلة، وأطلق العقل من عقال التقليد والظنّ والخرافات؛ للوصول الى معرفة الله.

لكن لم يترك الفكر والعقل يسرح ويمرح ويصول ويجول كيفما شاء، وفي كل ما يشاء دون ضابط أو قيد، بل جعل له مساحته التي يتحرّك فيها وحدوده التي لا يجوز له أن يتعدّاها. ومن رضي الإسلام دينًا فليس حرًّا في نقض الكليات والمحكمات والثوابت في الدين، كالذي تفعله الفرق قديمًا وحديثًا من الفلاسفة والمتكلّمين والعقلانيين والعصرانيين ومَن يسمي نفسه تنويريًا وهو غارقٌ في الظلمات؛ لأنّ العقل والفكر إن لم ينضبط بالشرع فهو في ظلمات الهوى والنفس.

وما أجمل وأرشق وأعمق هذه الكلمة من ابن القيم رحمه الله: «وقلمٌ بلا علم حركةٌ عابث»[٢]. وما أكثر العابثين في هذا العصر!!!

(١) بل إنّ الدول الغربية التي تنادي بحرية الفكر والرأي لم تقل به إطلاقًا، ففرنسا التي دافعت عن الإساءة للأنبياء لم تقبل الإساءة للرئيس الفرنسي واعتبرته منافيًا لحرية الرأي يستحق المحاسبة، والغرب عمومًا يتعامل مع قضية إنكار «مذابح الهولوكوست» بالملاحقة والتجريم، كما تتعرض الدول للتهديد بالعقوبات والعزل ويتعرّض الأفراد للتهديد بالمحاكمة والسجن لمجرّد رفض بعض القوانين الغربية الحديثة كالمثلية وحقّ الطفل في تغيير جنسه! ويُواجَه الكثير من المسلمين في الغرب والشرق بِتُهَمِ الإرهاب بناء على الفكر فحسب!!

(٢) مفتاح دار السعادة، ص (٢٢٠).

فإن قيل: إنّ محاربة الفكر بغير الفكر لا تجدي نفعًا، بل قد يستمر صاحب الفكر بفكره ويتمسّك به، فالجواب: أنّ هذا صحيح نسبيًا بالنسبة لصاحب الفكر، أمّا بالنسبة لسائر الأمّة فإنّه سيمنع عنها الشر أو يحدّ من انتشاره فيها، كما أنّه سيزجر من تسوّل له نفسه الفساد والإفساد والاقتداء بأئمة الضلال.

على أنّ معاقبة صاحب الفكر الفاسد المنحرف قد تدفعه لمراجعة نفسه والرجوع إلى الحقّ كما في استتابة المرتدّ، وقد ضرب عمر ﷺ صَبِيغًا الذي كان يثير الشبهات حول متشابه القرآن، ضربه مرتين ثم أراد أن يضربه الثالثة، فقال له صَبِيغ: «إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت». ثم حَسُنَ حاله بعد ذلك[1].

فساد الأحوال وعدم القدرة على معاقبة المسيء لا يمنع من بيان الحق، والرد على الأفكار التي تشكّك في ثوابت الدين وأصوله، وتفتن الناس في دينهم، أو تمسّ من قدسية الشريعة ومكانتها

ماذا لو لم يؤخذ على أيدي أصحاب الأفكار الباطلة؟

فإن قيل: عَلِمْنَا أنّ على أهل العلم التصدّي للأفكار المنحرفة، وكشف زيفها، ومحاورة أصحابها؛ قيامًا بواجب النصح للأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن كيف يكون التصرّف مع هؤلاء إن لم ينزجروا بالرد عليهم، ولم يأخذ السلطان على أيديهم، ويمنعهم من نشر باطلهم؟ ونحن نرى –لفساد الزمان وأهله– أنّ أمثال هؤلاء يمكّن لهم، ويبوّؤون المنابر المسموعة، بل ربما فُرضت أفكارهم على الناس فرضًا، في الوقت الذي يحارب فيه أصحاب الفكر الأصيل، والمنهج القويم، ويضيق عليهم ويودعون السجون والأقبية ظلمًا وعدوانًا.

فالجواب: أنّ فساد الأحوال لا يمنع من بيان الحق، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فهل إذا عَطّل الحاكم حدّ الزنا سكتنا عن بيان أنّ الزاني مستوجب للحد؟! وهل إذا قال: إنّ اليهود والنصارى إخوانكم في «دين إبراهيم» جَبُنّا عن وصفهم بالكفر كما دلت عليه الآيات والأحاديث المستفيضة؟!

بل يجب على أهل العلم أن يبيّنوا أنّ الأفكار التي تشكّك في ثوابت الدين وأصوله، وتفتن الناس في دينهم، أو تمسّ من قدسية الشريعة ومكانتها، ليست من حرّية الفكر في شيء؛ بل تقابل بالفكر والحوار، فإن لم يرتدع أصحابها بالرد العلمي والبيان الشرعي، فحقّ أولئك المنحرفين أن يُسكتوا ويؤخذ على أيديهم من ذوي السلطة بما يكفّ شرّهم، فإن لم يكن هناك مَن يأخذ على أيديهم فلا أقلّ من بيان ما يستحقّون حتى لا يغترّ الناس بهم، إلى أن يأذن الله بصلاح الأحوال، وهو لا شك آت.

فإن قيل: هذا يفتح الباب للتغول على المفكرين، وظلمهم، إذ قد يستغل صاحب السلطة هذا الأمر في تصفية خصومه، والتخلص منهم بحجّة أنّ أفكارهم باطلة ومنحرفة.

فالجواب: أنّ وقوع الظلم والتغوّل وإساءة استخدام الولاية وارد، ولكن هذا لا يقتصر على التعامل مع الفكر والمفكرين، فبعض الآباء قد يظلم أبناءه، وبعض الأزواج قد يسيء إلى زوجته، وبعض القضاة يرتشون، أفنلغي ولاية الرجل على أبنائه وقوامة الزوج على زوجته، والتحاكم إلى القضاة؛ بسبب وقوع ظلمٍ أو خطأ في تطبيق بعضهم؟!

وفي كلّ القوانين: يكون منع صاحب السلطة من الظلم والتغوّل بنصحه ووعظه والاحتساب عليه، وصولاً إلى عزله إذا فحش ظلمه، لا بإسقاط القوانين التي تحفظ النظام العام.

ثم إنّ صاحب الولاية الظالم لا ينتظر إذنًا من أحد لظلمه، بل سيجد دائمًا ما يتبجح به لتبرير ظلمه كما نراه اليوم.

وختامًا:

إنّ مقولة: «لا يُحارَبُ الفِكرُ إلَّا بالفِكرِ» لا تصحّ بإطلاق، بل لابدّ فيها من التفصيل، فالفكر المنحرف يُردّ عليه بالحجة والبيان، وأمّا حامل الفكر الداعي إلى بدعته الضالّة، المفرّق للجماعة فهذا لا بدّ من القيام عليه بالنصيحة والتحذير، والانتقال في التعامل معه بحسب ضلاله، وبحسب المصلحة؛ حمايةً للدين وصيانةً له، وحماية للناس أن يتأثروا بفكره الضال.

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٥/١)، والدارمي في سننه (٢٥٤/١)، والبدع والنهي عنها لابن وضّاح (١١١/٢).

حُسن الوفاء والأداء، وحلّ الخلافات: (نَظراتٌ شرعية)

م.طاهر صيام (*)

من جماليات الإسلام أنه دعا إلى معاملة الناس بالفضل والإحسان، وعدم الاكتفاء بالمعاملة بالمثل، ورتّب على ذلك الأجر الكثير الذي يتوّج بمعية الله ومحبته لعباده المحسنين، ولم يقف الأمر عند الحثّ والتوجيه، فقد جسّد ذلك النبيُّ ﷺ خير تجسيد فكان خير قدوة لخير أمة، فقابل الإساءة بالإحسان، وأحسن الوفاء، وأبلغ في إكرام من أحسن إليه.

حينما تظهر الفاقةُ، أو تَكسد الأسواق، وتلقي المِحن أثقالها، قد تزل أقدامٌ ثابتة، أو يروع الشيطان بعض القلوب خوفًا من نقص الرزق، وقد يصول إبليسُ تلبيسًا بالحيل النفسية والتخريجات غير الشرعية، فتصبح الحاجة إلى هذا الفقه العظيم أشدَّ وأوضح، فكل طرفٍ قد يستشعرُ ويكبُرُ عنده ما لَهُ ويستصغر ما عليه، إلا من رحم الله تعالى.

إن الوفاء وحُسن الأداء لعموم الحقوق - عقدًا مكتوبًا كانت أو وعدًا منطوقًا- واجبٌ من أهم الواجبات الشرعية وديدنٌ عام عند الرسل والصحابةِ والصالحين يستحقُ أن يُنبَّه عليه مرارًا -قولاً وفعلاً وقدوةً- خصوصًا وقت الشدة واختلاطِ الأحوال، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند أهل التفسير.

ولقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥]، قال السعدي في تفسيره: «ويؤخذ من عموم المعنى: النهيُ عن كل غش في ثمنٍ أو مُثْمَنٍ أو معقود عليه، والأمرُ بالنصح والصدقِ في المعاملة. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: أحسن عاقبة به يَسلمُ العبد من التبِعات وبه تنزل البركة»(١).

يقول الطبري كذلك في تفسيره: «يقول تعالى: ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ﴾ للناس ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لهم حقوقهم قِبَلَكم، ولا تبخسوهم ﴿وَزِنُوا بالقِسْطاس المُسْتَقِيمِ﴾: وقضى أن زِنوا أيضًا إذا وزنتم لهم بالميزان

(*) باحث إسلامي.

(١) تفسير السعدي (٤٥٧).

المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا دَغَل، ولا خديعة»[1].

وقال تعالى أيضًا منذرًا: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ١-٤].

كيف لا يكون حُسن الوفاء -أداءً وقيمةً وجودةً- دأبَ الصالحين وهاجسهم وهو نقيضٌ للتّطفيفِ وعاقبة الويل، ومما كتبه اللهُ تعالى على الأمة من الإحسان؟، كما في حديث شدّاد بن أوس ﷺ قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: (إنّ الله كتبَ الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قَتَلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفرتَه، فليُرِح ذبيحته)[2].

إنَّ هذا المبدأ الرصين مقررٌ في الكتاب والسنة، ويشملُ «البيوع» و«الخدمات» و«المعاملات» على حدٍ سواء.

من أجل هذا، جعل الرسول ﷺ الصدقَ وصلاحَ النيةِ والبيانَ أساسًا في توفيق الطرفين، فعن حكيم بن حزام ﷺ عن النبي ﷺ قال: (البيِّعان بالخِيار ما لم يتفرَّقا، فإن صَدقا وبَيَّنا بُورِكَ لهُما في بَيعهما، وإن كَذبا وكَتما مُحِقَت بركةُ بَيعهما)[3].

وعليه فإنَّ في هذا التوجيه النبوي، قطعٌ لموارِدِ التَحايُلِ واستغلالِ شدةِ الحاجةِ، وإخفاءِ العيوب والنَوايا، كمن يُسَمِّنُ شاتَهُ بالماء قبلَ عرضِها للبيع.

> **حُسن الوفاء -أداءً وقيمةً وجودةً- مبدأ رصين مقررٌ في الكتاب والسنة، يشملُ «البيوع» و«الخدمات» و«المعاملات» على حدٍ سواء، وهو دأبَ الصالحين وهاجِسَهم**

وتاليًا رحلةٌ في هذا الباب العظيم؛ كتابًا وسُنة وأثرًا وفقهًا:

١. إيفاء الكيل على أحسن وجهٍ بل وزيادته، نهجٌ وخُلقٌ نبوي رفيع، كما في قصة موسى مع شعيب عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، قال جمهور المفسرين كالطبري وابن كثير: إنَّه أتم عشرًا -أطبقَ المفسرون على الزيادة- وأوردوا روايات كثيرة عن ابن عباس أنه قالَ: أَتَمَّ خيرَهما وأكملهما وأطيبَهما[4].

وهاكم موقفًا نبويًا زكيًا آخر، فقد أورد الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي رافع ﷺ: أن رسول الله ﷺ استَسْلفَ من رجلٍ بَكْرًا، فقدِمت عليه إبِلٌ من إبل الصَّدقة، فأمر أبا رَافع أن يَقضيَ الرجل بَكْرَهُ، فرجع إليه أبو رافع، فقالَ: لم أجد فيها إلا خِيارًا رَباعِيًا، فقال: (أعطِهِ إياهُ، إنَّ خِيارَ الناسِ أحسنُهُم قضاءً)[5].

كما قال رسول الله ﷺ لرجلٍ وَزَّانٍ يَزِنُ بالأجر: (زِنْ وأَرْجِحْ)[6].

ولا شك أن الشرع هنا وعمومًا يتناول المبدأ وليس مجرد صورة الميزان المبسطة، فالأحكامُ تدور مع العِلل وجُودًا وعدمًا.

وهذا قبسٌ آخرٌ من قصة يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

قال الإمام البغوي في تفسيره: «﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾، أي: أعط لنا ما كنتَ تُعطينا قبلُ بالثمن الجيد الوافي، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، أي: تفضَّل علينا بما بين الثَمَنَين الجيدِ والرديءِ ولا تَنْقُصنا. هذا قول أكثرِ المفسرينَ»[7].

---

(١) تفسير الطبري (٥٩١/١٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣٢).
(٤) تفسير ابن كثير (٢٣١/٦) وتفسير الطبري (٢٣٥/١٨): «قضى أكثرَهما وأطيبَهما»، وأخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢٦٨٤).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٠٠)، ومعنى: (بَكْرًا): الفتيُّ من الإبل، و(خِيارًا رَباعِيًا): الخيار هو المختار، والرباعي: ما أتى عليه ست سنين ودخل في السابعة حين تطلع رباعيته.
(٦) أخرجه أبو داود (٣٣٣٦) والنسائي (٤٥٩٢) والترمذي (١٣٠٥).
(٧) تفسير البغوي (٥١١/٢).

يرى الصالحون في إيفاء الكيل وحُسن أدائه طريقةً لتنظيف أصل المال من غبار الحرام مما لم يُحتَرز منه، علاوة على تنميته ومباركته وحمايته من الهَلكة

٢. ولا يزال السلفُ والصالحون وأهل التجارة الأخيار تُرْوى سِيرهم في إكمال العطاء، بل والتحلل من أي عيبٍ خفيٍّ بالزيادة، وهذا «فقهٌ عظيمٌ» دَأَبَ عليه واستشعره أهلُ القلوب الحية حيطةً أو من باب الورع في أحسن حال. إذ يرى الصالحون في حُسن الأداءِ والزيادة طريقةً أخرى -فضلاً عن الزكاة الواجبة- لتنظيف أصل المال من غبار الحرام مما لم يُحْتَرَز منه، علاوة على تنميته ومباركته وحمايته من الهَلَكة.

وهو فقه جليلٌ مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، لذلك نجدُ أن الرسول ﷺ وصف الصدقات بأنها أوساخُ الناس، فهي كغسيلِ الدَّرَن! فعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الصدقةَ لا تَنْبَغي لآل محمدٍ، إنما هي أوساخ الناس)[١].

٣. أمَّا سِيَرُ الصحابةِ والصالحين في هذا الباب فمستفيضةٌ. فقد ذكر ابنُ حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ: (الدين النصيحة):

«ولمسلم من طريق الشعبي عن جرير قال: «بايعتُ النبيَّ ﷺ على السمع والطاعة» فلقَّنني: «فيما استطعتُ، والنصح لكل مسلم»، ورواه بن حبان من طريق أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده وزاد فيه: فكان جرير إذا اشترى شيئًا أو باع يقول لصاحبه: اعلم أنَّ ما أخذنا منك أحبّ إلينا مما أعطيناكه، فاختر.

وروى الطبراني في ترجمته أن غلامه اشترى له فرسًا بثلاثمائة، فلما رآه جاء إلى صاحبه فقال: إنَّ فرسك خير من ثلاثمائة، فلم يزل يزيده حتى أعطاه ثمانمائة»[٢].

٤. وقفةٌ لا بدّ منها مع أكثر أسباب الخلافات والتفريط في الحقوق، وهو مَورد مُهلك يقع فيه بعض الصالحين، ألا وهو عدم قيام صاحب العقد أو العملِ الأساسي - كالمُلّاك وأرباب المصانع والتجارات وغيرهم- بمعاينة

(١) أخرجه مسلم (١٠٧٢).
(٢) فتح الباري (١/١٣٩).

الوفاء وحُسنِ الأداءِ «بنفسه»، قبل وبعد وقوع «الخلاف» أو «الشكوى»، وذلك غالبًا لتوكيله أو تسليمه الشأن لمساعديه، ويصبح الأمر أصعب إن كان من «المُقرَّبين» أو «الأقارب»، فقد لا يقبلُ المالكُ صرفًا ولا عدلاً أو يُسرفُ بالثقة بوكيله ومُساعده، دون مُعاينة متواصلة وتَحقُّق، فغالبُ ما قد يَركن إليه عند التَظَلُّم هو «النَقلُ المُعَنعَن»، لهوىً خَفيٍّ في النفس وعاطفة أو كسل، وقد يَتَنَبَّهُ لتقصيره وجَورِهِ متأخرًا فتَنالهُ دعوة مَكلوم.

ودعونا نقفُ هنا أمام شاهد عملي وعبرة جليلةٍ من عمر بن عبد العزيز، وحُسن قيامه على الشؤون وعدم رُكونه إلى المُساعدين دون رقابةٍ أو ثقة مُطلقةٍ:

«فعن عنْبَسة بن غصن قال: كان وَهب بن منبّه على بيت مال اليمن، قال: فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز ﷺ: «إني فَقَدْتُ من بيت مالِ المسلمين دينارًا» قال: فكتب إليه: «إني لا أَتَّهمُ دينك ولا أمانتك، ولكن أَتَّهم تَضييعَك وتفريطك، وأنا حَجيجُ المسلمين في أموالهم، وإنما لأَشَحِّهم، فاحلف لهم، والسلام»[1]!!

وهذا يقودنا إلى التوجيه الرباني «باتّهام النفس» في كل شُؤون الخلاف وأداء الحُقوق، إذ يقول الله تعالى في التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾... الآية [النساء: ١٣٥]، وعليه فقد أمر الشارعُ سبحانه الأمةَ بضرورة إقامة العدل، وشرطَ فيه أن يكون عدلاً خالصًا لا يَشوبُهُ شيءٌ من المَصلحة والهوى أو العاطفة.

لقد تَضمنت الآيةُ السابقة مقصدًا عظيمًا في الشريعة الإسلامية، وهو العدل بعبارة جامعةٍ: «أعطِ كل ذي حق حقه».

٥) ولنا وقفةٌ هنا لازمةٌ مع أعظمِ العقودِ وأشدّها رابطةً وأثرًا على طرفي العقد والمجتمع، ألا وهي «عقود الزواج» التي تجمعُ بين مقاصد شرعية لا تجتمع في سِواها من العقود، فهي تشمَلُ أيضًا تحقيق مقصد «حفظ النسل»، بل وتعضُد مقصد «حفظِ الدين». إنه حقًا لَعَقدٌ عظيمٌ تَحِلُّ به النساء، فَتتفَرَّعُ الأنساب، وتنشأ الروابط الأبديةُ وتَتَّصل الأرحام، وتُبنى عليه مُكوّناتُ الأُسر والمجتمعات.

لذا خاطبَ الله تعالى المتقين خطابًا عظيمًا، ربط فيه بين هذه المعاني الأُسريّة التناسلية مُذكِرًا بربوبيته وخَلقِه وبَثّه لهذه النفوس المُتراحمة المتناسلة من نفس واحدة، مشيرًا عزَّ وجلَّ إلى أن ذلك من عظيم خَلقِهِ ومعجزاته الإنسانية والاجتماعية اللطيفة، إذ قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

> **من أكثر أسباب الخلافات والتفريط في الحقوق عدم قيام صاحب العقد أو العمل بمعاينة الوفاء وحُسنِ الأداءِ بنفسه، والثقة المطلقة بوكلائه ومساعديه دون تمحيصٍ أو تحقق**

قال العلامة السعدي في تفسيره: «وقرنَ الأمرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكِّد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحقِّ الله، كذلك يجبُ القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به. وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فَصَّلَ هذه الأمور أتمَّ تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكأنها مبنيةٌ على هذه الأمور المذكورة، مفصلةٌ لما أجمَلَ منها، موضحة لما أبهم. وفي قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب علاقة»[2].

من أجل ما سبق من معانٍ جَمَّة، سمى الله تعالى العهد بين الزوج وزوجتَه بالمِيثاق الغليظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، وإذا كانت العلاقةُ بين الزوجين هكذا موثقةً مؤكدةً، فإنّه لا ينبغي الإخلال بها، وكلُّ أمرٍ من شأنه أن يُهَوِّن هذه العلاقة، فهو بغيضٌ إلى الإسلام؛ لأنه

(١) سيرة عمر بن عبدا لعزيز، لابن عبد الحكم، ص (٦٥).
(٢) تفسير السعدي (١٦٣).

توصيات لحل الخلاف بين طرفي العقد

الطرف الأقوى

- تقديم الإنصاف مع الطرف الآخر
- التجاوز عن بعض الخسارة اليسيرة
- الحرص على عدم خسارة الطرف الأضعف
- المواصلة بالمعروف أو المفارقة بإحسان

الطرف الأضعف

- عدم المطالبة بما ليس حقاً
- تجنب الغمط وسوء الظن
- تقديم العذر في مواضع الخلاف المعقول
- الامتناع عن التشهير والتطاول عرض الخصم

الطرفان

- الحرص على حسن المخرج والتفاهم الودي

يُفَوّتُ المنافع، ويُهدِدُ مصالحَ كلٍ من الزوجين، ولأن استقرارَ الحياة الزوجية، غايةٌ من الغايات الشرعية التي يَحرصُ عليها الإسلام، فعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا من غير بأس، فحرامٌ عليها رائحة الجنة)[1].

وبهذا نعلمُ أن ما يجري بين الزوجين من مُشاداتٍ خفيفة، واختلاف وجهات نظر مما لا يخلو منه بيتٌ غالبًا، لا ينبغي أن يكون سببًا لحلّ ذلك الميثاق الغليظ، ولا في تفكيك هذه الأسرةِ الصالحة.

أمَّا إن استعصت الأمور، فالشرع لا يترك سبيلاً للصلح إلا وفتحَ بابه وحثَّ عليه؛ يقول سبحانه: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨]، قال د.عمر بن عبد الله المقبل بصدد هذه الآية: «هذه قاعدةٌ من «القواعد القرآنية» المهمة في بناء المجتمع وإصلاحه، وتدارك أسباب تفككه، إنها قول ربنا العليم الخبير: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وقد وردت مشرقةَ المعنى، مسفرةَ المبنى، في سياق الحديث عما قد يقع بين الأزواج من أحوال ربما تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وأن الصُلحَ بينهما على أيّ شيءٍ يرضيانه خيرٌ من تَفَرُّقِهما.

ويُمكننا القول: إنّ جميعَ الآياتِ التي وَرَدَ فيها ذِكر الإصلاح بين الناسِ هي من التفسير العملي لهذه القاعدةِ القرآنيةِ المتينة.

ومن المناسبات اللطيفة أن تَرِدَ هذه الآية في سورة النساء، وهي نفسُ السورةِ التي وَرَدَ فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾»[2].

قال السعدي مفسرًا: «وذِكرُ المَانِع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جُبِلَت النفوس على الشُح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولةٌ على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُقِ الدَنِيء من نفوسِكم، وتستبدلوا به

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٢٦) والترمذي (١١٨٧) وابن ماجه (٢٠٥٥).
(٢) ينظر: قواعد قرآنية، للدكتور عمر المقبل، ص (٤١).

ضده وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك»[1].

إذًا فَلنستَصحِب القاعدتين السابقتين: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وكذلك ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾، في هَمَساتِنا التاليةِ لِفَضِّ الخلافات في كل الشؤون والعقود.

جدير بالمسلم أن يحرص على حُسن المخرج والتفاهم الودِّي في حل الخلافات، خصوصًا في وقت العُسرة، وهو توجيه رباني أصيل يتلخص في قوله تعالى: (والصُّلح خير)

توصيات لحل الخلاف بين طرفي العقد:

ختامًا في زمن النوازل، همساتٌ لحل الخلاف بين طرفي العقدِ إن كان لا بدَّ من الفراق:

أخي المسلم، إن كنت أنت الطرف الأقوى في العقد -كمالك العقار أو صاحب العمل- فهذا أدْعى أن تُنْصِفَ حال الطرف الأَضعف، فلا تَستكثرنَّ بعض الخسارة فالتجارة مبناها البركة والتوفيقُ، وأنت أقدَر على تحمُّلها، فلن تَمسَّ غالبًا قُوت يومك، ولا تستقِلَّنَّ خَسارةَ الطرف الأضعف، فقد يصل الأمر إلى قُوت أطفاله وضَرورات الصحة، فَسَدِّد وقارِب ثمَّ أمسك بمعروفٍ أو سرِّح بإحسان يا رعاك الله.

أما الطرف الأضعف، فأَهمس إليه: لا يحمِلَنَّكَ ضعفك على طلب ما ليس هو حقًا لك، أو الغَمْط وسُوء الظن، واعذِرْ فيما هو موضع خلاف معقول، ولا يَحمِلَنَكَ ضعفُك أو حتى وجود حق لك على التَّشهير أو الاستطالة في عِرض غَريمك.

فقد ورد في مثل هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

واحرِص أيها المسلم على حُسن المَخرج والتفاهم الودي خَصوصًا في وقت العسرة، فإفساح المجال للتفاهم الودي معمولٌ به كأول خطوة في حلِ الخلافات في العقود العالمية «كلجان التحكيم الودية»، كما في «الشروط العامة» الموحدة لعقود فيدك الدولية - FIDIC- وهي عقودٌ باتت معتمدةً في المشاريع والخدمات في غالب الدول، وقد أقرَّتها وعَمَّمتها مثلاً دولُ الخليج العربي منذ زمن، بلْ وفرضتها على «القطاع الحكومي»، وانتشرت في «القطاع الخاص» كذلك.

هذه العقودُ عادةً تُحدِدُ مسبقًا بالتراضي أسماء المُحَكمين ذوي الخبرة في مادة العقد والمَعقود عليه، أو تُحدد الجهة المِهَنية التي تقوم بالتحكيم، وآليةَ الدفع لأتعابها. كما أنه في حالة عدم الإذعان لقرار «التحكيم الودي» والتحول إلى المَحاكم، فإن المَحاكم غالبًا ما تُقرُّ قرارَ لجنة التحكيم الودِية، أو تستأنس به على الأقل، خصوصًا أنه رأيٌ مهنيٌ وجزءٌ من وثائق العقد، ويُعدُّ بمثابة الحكم الابتدائِي.

مثل هذا الاعتبار للتحكيم الودي وأهميته في حل الخلافات، حريٌّ أن يُؤخذ به بين المسلمين من باب أولى، فقد حضَّتْ عليه النصوص لما فيه من تقليل للشحناء وتفاقُم الخلاف وتَعقُّده، وتَحقيقًا لمَقصد التراضي والتسامح والتوافق بدلاً من الإلزام ومرارة الحكم الملزم ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(١) تفسير السعدي، ص (٢٠٦).

تأصيل

مدخل إلى فهم السلفية

عدة باحثين (*)

السلفية من المصطلحات التي كثر حولها الجدل قديمًا وحديثًا، والمنتسبون إليها يشكلون تيارًا كبيرًا في تأثيرهم وتفاعلهم، وقد تناولها بالكتابة والنقد كثير ممن يجهلونها، أو لهم مع بعض المنتسبين إليها خصومة، أو حاكموها بتصرفات بعض من ينتسب إليها. ويضاف إلى ذلك موجة الاستعداء العالمي «للسلفية» الذي يصل إلى حدّ التجريم في بعض البلدان. في هذا المقال إضاءات حول هذا المصطلح وما يتعلق به.

تعريف السلف والسلفية:

السلف لغةً: الفعل «سَلَفَ» يعني: تقدَّم، والسالف المتقدِّم، والسلفُ الجماعة المتقدِّمون، وسلفُ الرجل: آباؤه المتقدِّمون(١).

وقد ورد الجذر (س ل ف) في القرآن الكريم، كما ورد في السنة، وفي العديد مِن كلام الأئمة وعباراتهم في العصور المتقدمة.

السلف اصطلاحًا: إذا أطلقت عبارة «سلف الأمة» فالمقصود: القرون الثلاثة في صدر الإسلام، مِن الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين(٢)، وهي القرون التي جاءت النصوص بخيريتها، كما في قوله ﷺ: (خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)(٣).

فَهْم السلف الصالح ومكانته في الدين:

القرآن والسنة هما مرجع الأمة بالاتفاق، لكن لما تفاوتت أفهام الناس وتأويلاتهم، وظهرت الانحرافات والبدع التي تزعم أنَّها تتبعهما؛ ظهرت الدعوة إلى التماس الحق والنجاة في منهج السلف في التعامل مع النصوص وتطبيق الإسلام باعتباره منهج من زكاهم الله تعالى في كتابه وزكاهم النبي ﷺ، وسمي هذا التوجه بـ «منهج السلف الصالح»، وهو يشمل كلَّ من اتبع هذا المنهج وسار عليه مِن أعلام الأمة ومجتهديها، بما فيهم الأئمة

(*) أصل هذا المقال كتاب أصدره المكتب العلمي بهيئة الشام الإسلامية بالعنوان نفسه قبل سنوات.

(١) ينظر: المصباح المنير ص (٢٣٥)، القاموس المحيط ص (٨٢٠) .

(٢) وإطلاق تسمية القرون الأولى بالسلف شائع حتى عند المتكلمين.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

الأربعة رحمهم الله وأتباعهم، فأُطلق مصطلح «السلفية» على هذا المنهج، وسمي من سلك نهجهم لاحقًا: «السلفيون».

لما تفاوتت أفهام الناس في التعامل مع النصوص الشرعية، وظهرت الانحرافات والبدع التي تزعم اتباعها، ظهرت الدعوة إلى التماس الحق في «منهج السلف» في التعامل معها، وهو يشمل من اتبع هذا المنهج وسار عليه مِن أعلام الأمة ومجتهديها، بما فيهم الأئمة الأربعة وأتباعهم

دور منهج السلف في حفظ الدين وإعادته إلى نقائه:

منهج السلف ليس مدرسة بعينها، أو اختيارات فقهية محددة، بل هو منهج علماء الأمة في فهم النصوص والتعامل معها، وفي هذا المنهج حفظٌ للدين، وردٌّ على البدع والانحرافات التي تخرج بين فينة وأخرى بسبب الابتعاد عن هذا المنهج، وعودة بالناس إلى الحق وجماعة المسلمين، ومن الأمثلة على ذلك:

- أنّه حينما ظهرت بدعة الخوارج: تصدى السلف لها بدحض شبهاتهم ورد غلوائهم، كمناظرة ابن عباس ﷺ لهم، وردّ اعتدائهم بقوة السيف كما فعل علي بن أبي طالب ﷺ والصحابة معه.
- ولما وقعت فتنة إنكار القدر، تصدّى لها مَن عاصرها مِن الصحابة كابن عمر ﷺ، ثم أنكرها التابعون والأئمة بعد ذلك.
- وحين وقعت الجرأة في الكذب على رسول الله ﷺ، اعتنى السلفُ بتمحيص الصحيح من الضعيف والموضوع فيما ينسب للنبي ﷺ.
- ولما ظهرت بدعةُ الجهمية وإنكار الصفات قام العلماء ببيان بطلانها، والرد على القائلين بها، ومن ذلك فتنة خلق القرآن المعروفة.
- وعندما ظهرت المعتزلة وخالفت منهج السلف في التعامل مع النصوص وتعظيمها، وتبنّت محاكمة النصوص الشرعية إلى العقول (أو ما سمي تاريخيًا بتقديم العقل على النقل)، تجلى منهج السلف في توضيح موقع العقل من الوحي، وأنه لا تعارض بين النقل الصحيح مع العقل الصريح.
- ولما ظهر في الأمة تقديس الصالحين، والتعلّق بالأموات والغائبين، والذبح عند الأضرحة، وبناء المساجد على القبور: بيّن العلماء خطورة ذلك على الإيمان والتوحيد.
- ولما ظهرت بدعة الإرجاء، وقصر الإيمان على ما في القلب، وإخراج العمل عن مسمّى الإيمان، نافح أتباع السلف عما دلّت عليه أدلة الكتاب والسنة مِن أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.
- ولما انتشرت المذاهب الفقهية ونفع الله بها، ثم جاء من يتعصب لها، ووقعت النزاعات بين أتباعها في المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الخلاف، وظهرت الدعوة إلى الجمود عليها وإغلاق باب الاجتهاد: دعا أرباب الفقه والإصلاح وأتباع التمسك بالسنة ومنهج السلف إلى إبقاء باب الاجتهاد والتجديد مفتوحًا بضوابطه الشرعية المعتبرة.
- ولما ظهر مذهب الظاهرية في الفقه، الذي لا ينظر إلى علل الأحكام ولا مقاصدها، بل يقف عند حروفها ورسومها، بيّن أهل العلم والسنة ثبوتَ القياس في الشريعة، وأصّلوا لنظرية المقاصد، وقاعدة الموازنات بين المصالح والمفاسد.

وهكذا، لم تكن الدعوة إلى منهج السلف فرقةً مستقلة عن عموم المسلمين، أو حزبًا منشقًّا عنهم، أو مذهبًا معينًا يخالف ما استقر عليه عملهم، أو مصطلحًا محددًا في جانب معيّن من الدين، أو مسائل محصورة يجب على الشخص أن يتبعها في كل عصر، بل دعوةً للتمسك بالثوابت، والمحافظة على صفاء الإسلام، ومواجهة الانحرافات والأفهام المغلوطة في الدين. ومن هنا كان الارتباط الوثيق والتبادل بين مصطلحي «الرجوع إلى فهم السلف» و«الإصلاح والتجديد»، وكان المنتسبون للسلف الصالح في الأغلب من الداعين للتجديد في الدين، وردِّ (تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين).

معالم منهج السلف:

يمكن تلخيص أهم معالم منهج الدعوة إلى اتباع ما كان عليه السلف الصالح فيما يلي:

١. الرجوع إلى الكتاب والسنة، واعتبارهما الأصل الذي يجب على كلِّ مسلم أن يتحاكم إليه.

الدعوة إلى منهج السلف هي دعوةٌ للتمسك بالثوابت، والمحافظة على صفاء الإسلام، ومواجهة الانحرافات والأفهام المغلوطة في الدين. ومن هنا كان الارتباط الوثيق بين مصطلحي «الرجوع إلى فهم السلف» و«الإصلاح والتجديد»

٢. الاحتجاج بالسنة النبوية الصحيحة واعتبارها أصلاً مِن أصول التشريع.

٣. الاهتمام برواية الأحاديث النبوية، وتمييز صحيحها من سقيمها.

٤. تقديم فهم الصحابة والتابعين للنصوص الشرعية على فهم مَن بعدهم مما يخالفه.

٥. حصر مصادر تلقي العقيدة في نصوص الوحي المعصوم كتابًا وسنةً، والاحتجاج بما ثبت منها ولو كانت من أحاديث الآحاد.

٦. عدم معارضة النصوص الشرعية بالعقول والآراء وغيرها.

٧. عدم التعبد لله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، ومنع الابتداع في الدين.

٨. العصمة للأنبياء فيما يبلغون عن ربهم دون غيرهم من سائر الناس، مع الإيمان بكرامات الصالحين والأولياء وما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات.

٩. التجديد والاجتهاد بضوابطه الشرعية.

١٠. الحفاظ على جماعة المسلمين ووحدة كلمتهم.

١١. العناية بالتزكية والأخلاق وعلى رأسها العدل والإنصاف.

إذًا: مَن هو السلفي؟

من خلال ما سبق يتضح أنَّ لفظ «السلفي» يُطلق على مَن يبذل وسعه في اتباع الأصول الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة فعلاً وقولاً، ويُعنى بطريق العلماء الراسخين من الصحابة والتابعين ومَن سار على نهجهم، وبقدر تحقيق ذلك يكون «سلفيًّا» ولو لم يسمِّ نفسه بهذا الاسم، فالعبرة بالحقائق لا الدعاوى.

ومَن خالف هذا المنهج فليس على منهج السلف ولو تسمّى بذلك، أو وُصف به.

ولهذا قد يكون بين المنتسبين لهذا المنهج: الصادق والكاذب، والموافق والمخالف مخالفة كلية أو جزئية، فقد يكون موافقًا لمنهج السلف في مسائل ومنحرفًا عنه في مسائل أخرى، لكن المخالف للسلف في بعض أصولهم وإن وافقهم في غيرها لا يُنسب إليهم عند الإطلاق، ولا يحسب منهم عند الإجمال.

يطلق لفظ «السلفي» على مَن يبذل وسعه في اتباع الأصول الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة فعلاً وقولاً، ويُعنى بطريق العلماء الراسخين من الصحابة والتابعين ومَن سار على نهجهم

السلفية عبر التاريخ:

لم يظهر المنهج السلفي بشكل مفاجئ، ولم ينشأ بعد أن لم يكن، بل هو استمرارٌ لما كان عليه الصحابة وعلماء الأمة والأئمة المتبوعون الذين كانوا يقفون في وجه البدع المحدثة، فيُجلون الحق ويُبينون الشريعة، ويُعيدون الناس إلى العقيدة الصافية، وهذه أمثلة مختصرة لجملة مِن مواقف أهل العلم الذين حملوا لواء نشر الدين وتعليمه، والوقوف في وجه البدع والانحرافات:

- فمِن الصحابة: موقف الخليفة أبي بكر ﷺ مِن المرتدين، ومدّعي النبوة، ومانعي الزكاة، وموقف الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ مع صبيغ بن عِسل في خوضه في متشابهات القرآن، وموقف عبدالله بن مسعود ﷺ مع المتحلِّقين للذكر في بعض مساجد الكوفة على هيئة لم تكن في زمن النبي ﷺ، وموقف عبد الله بن عمر ﷺ من القدرية، وموقف الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ من الخوارج والسبئية.
- ومن التابعين: تصدي الأئمة مجاهد وعمر بن عبدالعزيز رحمهم الله للقدرية، وموقف الزُّهري والحسن البصري في جم غفير مِن التابعين رحمهم الله من المعتزلة والجهمية.
- ومن أتباع التابعين ومَن بعدهم: تصدي الأئمة أبي حنيفة ومالك بن أنس وابن المبارك والشافعي رحمهم الله تعالى للجهمية، وقد ألّف الإمام مالك الموطّأ خوفًا من الجهميَّة الذين يُغيِّرون دِين الله كما نُقل عنه، وردّ عبدالرحمن

السلفية: هي إعادة الدين إلى ما كان عليه سلف الأمة

بن مهدي على المجسِّمة والمشبِّهة، وللإمام أبي حنيفة صولاته مع الجهمية والزنادقة والملاحدة، كما ألّف الإمام الشافعي رسالته في أصول الفقه لحفظ الدين في طرق الاستنباط والتعامل مع النصوص الشرعية بعد أن انتشرت المخالفات والانحرافات في ردّ بعضها أو التشكيك في حجّيتها ودلالتها على الأحكام.

» ولما احتشدت حشود أهل الأهواء مِن الجهمية والمعتزلة زمن المأمون واستعانوا بقوة السلطان في فرض بدعتهم قيَّض الله لهم كثيرًا مِن أهل العلم فوقفوا في وجه طغيانهم، وكان مِن أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل الذي كان له موقف مشهور في فتنة خلق القرآن، فلقّب بعدها بـ «ناصر السنة».

وازداد انتشار مصطلح السلف والسلفية إلى جانب مصطلحات أهل الحديث والأثر والسنة[1] في مقابل الخلف وأهل البدعة.

ولم يكن الإمام أحمدُ مختلفًا عن الأئمة الثلاثة ﷺ أجمعين، لكن لاشتهار موقفه ذاك ذاع صيته وانتشر، ومِن ثَمَّ وقع الخلط عند العديد مِن الباحثين بين السلفية والحنبلية، مع أن العديد من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى كانوا على منهج السلف، وفي المقابل لا يعد جمع مِن الحنابلة من السلفيين عند الكثير مِن الباحثين.

لم يظهر المنهج السلفي بشكل مفاجئ، أو بعد أن لم يكن، بل هو استمرارٌ لما كان عليه السلف والأئمة الذين كانوا يقفون في وجه البدع المحدثة، فيُجلون الحق ويُبينون الشريعة، ويُعيدون الناس إلى العقيدة الصافية

هذا المنهج كان هو الأصل في أهل العلم قبل القرن الرابع الهجري، والذين ساروا على هذا المنهج بعده ليسوا قلةً أو جماعةً شاذة، بل هم أعلام الأمة، وأئمة السنة، وقد عدّ الإمام أبو القاسم الطبري اللالكائي (ت ٤١٨هـ) أسماء العلماء الذين وُصفوا بالإمامة في السنة واتباع ما كان عليه السلف إلى زمنه في أوائل القرن الخامس الهجري

(١) سماهم الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين ص (٧٠) بأهل الحديث والسنة، ومما نقله مِن قولهم وعقيدتهم: «ويعرفون حقّ السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويأخذون بفضائلهم...، ويرون اتباع مَن سلفَ مِن أئمة الدين، وأن لا يبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله..، ويرون مجانبةَ كلِّ داعٍ إلى بدعة..». ثم قال بعد أن نقل مذهبَهم وعقيدتَهم: «وبكلّ ما ذكرنا مِن قولهم نقول، وإليه نذهبُ».

فبلغوا (١٩١) عالمًا مِن جميع البلاد والأمصار[١]، وحينما ذكر فتنة خلق القرآن، عدّ الذين أنكروها من العلماء والفقهاء فزادوا على الخمسمئة[٢].

ومن أبرز العلماء الذين ساروا على منهج السلف، ولزوم الأثر في القرن الخامس الهجري: أبو عثمان إسماعيل الصابوني الشافعي (ت ٤٤٩هـ)، وأبو عمر بن عبدالبر المالكي (ت ٤٦٣هـ) حافظ المغرب، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) إمام المشرق في الحديث، وأبو المظفر الإسفراييني (ت ٤٧١هـ)، وأبو علي الحسن بن أحمد بن البنا الحنبلي (ت ٤٧١هـ)، وأبو الفتح نصر المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠هـ).

وفي القرن السادس: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي المالكي (ت ٥٢٠هـ)، وأبو الحسن ابن الزاغُوني الحنبلي (ت ٥٢٧هـ)، والإمام عبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ)، وأبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي (ت ٥٥٨هـ)، وعبدالغني بن عبدالواحد المقدسي (ت ٦٠٠هـ).

وفي القرن السابع: ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ)، وعباس بن منصور السكسكي الشافعي (ت ٦٨هـ)، وأحمد بن حمدان النميري (ت ٦٩٥هـ).

ثم تتالى العلماء الحاملون للواء منهج السلف، ولعل مِن أبرزهم في القرن الثامن الشيخ أحمد بن عبدالحليم المعروف بابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، والذي يُعد مِن أعلام هذه المدرسة، والعديد مِن مشاهير أهل العلم كانوا مِن تلامذته أو ممّن تأثر به، كابن قيم الجوزية، والحافظ المزي، والحافظ الذهبي، والحافظ ابن كثير وابن مفلح الحنبلي رحمهم الله جميعًا، وغيرهم كثير.

وهكذا وُجد العلماء الأعلام الداعون لاتباع مذهب السلف والمتمسكون به في القرون التالية حتى عصرنا الحاضر.

السلفية في العصر الحالي:

بعد الاتفاق على الأصول الشرعية والمعالم المنهجية تباينت أفهام ومواقف المنتسبين إلى هذا المنهج، واختلفت اجتهاداتهم في بعض القضايا أو التعاطي مع النوازل، وهذا أمر طبيعي وموجود في شتى المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية والكلامية، ولا يستدعي تسميات أو تقسيمات خاصة، فالفروق بينهم ليست فروقًا حدّية أو مفصلية، وتوجد صعوبة في تصنيف كثير من الشخصيات ضمن اتجاه من تلك الاتجاهات؛ لأنها قابلة للدخول تحت أكثر مِن تصنيف منها.

تباينت اجتهادات المنتسبين إلى المنهج السلفي في بعض القضايا والنوازل، وهذا أمر طبيعي وموجود في شتى المدارس الفكرية، ولا يستدعي تسميات أو تقسيمات خاصة، فالفروق بينهم ليست حدّية أو مفصلية، مع صعوبة تصنيف كثير من الشخصيات لعمومية التصنيفات وتداخل تفاصيلها

وقد استمر هذا الأمر حتى جاء العصر الحالي والذي تداخلت فيه عدة عوامل أدت إلى ظهور تسمياتٍ وتصنيفات وأنواع للسلفية عند بعض الباحثين، ومِن أهم هذه العوامل:

العامل السياسي: والذي تمثل في تنحية الحكومات للشريعة، وما تبعه من انحرافات كبيرة، مما جعل عددًا مِن أهل العلم ينصرفون إلى التعامل مع الواقع وانحرافاته بالتخصص في مجال من مجالات الإصلاح، فمنهم من اتجه إلى التعليم، ومنهم مَن اتجه إلى البحث والتأليف، ومنهم من اتجه إلى الإصلاح السياسي وغير ذلك، واختار آخرون الابتعاد عن التعرض لمسائل الحكم والسياسة حماية للدعوة وطلابها من التضييق، فظهرت جماعات متخصصة بالدعوة: كالدعوة والتبليغ، وأخرى متخصصة بالتعليم والبحث: كالمدارس والجامعات الإسلامية في الهند، ومنها جماعات تنتسب للسلف[٣].

ظهور الجماعات المعاصرة: فمع أن التجمعات والمدارس كانت موجودة في العالم الإسلامي إلا أنها لم تكن بالشكل المعاصر، وقد أثر هذا مِن جهتين:

- الأول: إعلان الأصول والأسس التي تقوم عليها، وتميزها عن غيرها، وربما أدى ذلك إلى المنافسة بينها، والوقوع في التحزب وغمط دور الآخرين.

(١) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٣١-٥٤).
(٢) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٣٤٤).
(٣) كما كان للدول والأنظمة أدوار سلبية في التفريق بين الجماعات وإثارة العداوة بينها كما سيأتي.

» الثاني: قيام الباحثين والدارسين بالتصنيف والتقسيم والتسمية لفهم خارطة الجماعات الإسلامية، فظهر الإلحاح على هذه التقسيمات والتمييز بينها.

وقد تأثر بذلك عدد من الجماعات المنتسبة للسلفية، فظهرت وانتشرت جماعات متعددة ترفع شعار السلفية شعرت بالحاجة لجمعيات ومنظمات تعلن من خلالها فكرها ومنهجها، كما أن للتيارات الأخرى جمعيات ومنظمات.

الاستشراق: ومن أخطر ما سعى إليه: العمل على إشاعة التقسيمات والتصنيفات بين الجماعات والحركات الإسلامية، وإلصاق الأوصاف والأحكام بها، مع الخلط والتشويه، ونشر ذلك في الإعلام وميادين البحث حتى أصبح الكثير منها كالمسلَّمات للمتحدثين فيها، فعلى سبيل المثال اخترعوا مسمى (الإسلام السياسي) لوصم الجماعات التي تعمل في الميدان السياسي لنصرة الإسلام، وكانوا أول من أطلق على جماعات الغلاة اسم (الجماعات الإسلامية) و(السلفية الجهادية)، كما عملوا على تقديم مفاهيم مغلوطة للدين باسم التجديد والعصرانية والحداثة، ووسم كل ما خالفها بالتخلف والرجعية والأصولية والتشدّد.

وقد ظهر بسبب هذه العوامل وغيرها تقسيماتٌ للسلفية جُعلت بمثابة المدارس السلفية المعاصرة، ومنها: السلفية العلمية، والسلفية الحركية، والسلفية الجهادية، والسلفية الإصلاحية، وغير ذلك، وقد يجري تقسيم هذه المدارس أيضًا إلى عدة اتجاهات أو جماعات.

ومما يبين عدمَ دقةِ هذه التصنيفات أنّ مَن عمل بالجهاد مِن هؤلاء العلماء أو الدعاة أو أفتى فيه أو سعى في مساعدة المجاهدين فإنه لا يسمى عند المصنِّفين (جهاديًا)، وأنّ العديد ممن عمل في الشأن العام، أو اهتمّ بقضايا المسلمين يُصنف علميًا لا حركيًا، وأيضًا فالاهتمام العلمي والتأليف في المسائل العلمية مشترك بين معظم المنتسبين للسلفية[1].

(١) وفي هذا السياق يمكن لمدرسةٍ أن تكون نموذجًا للجمع بين عدة أعمال، كما يظهر ذلك في المدرسة السلفية الشامية؛ فقد تميزت بقدرتها على الجمع بين العلم والدعوة، وحملت على عاتقها الإصلاح المجتمعي بصورته الشاملة، واضطلعت بحمل راية مقاومة المستعمر، ومارست نشاطها السياسي بأساليبه المعاصرة. وهي مدرسة لها جذور تمتد من القرون السابقة إلى يومنا هذا، ومن أبرز روادها: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ طاهر الجزائري الذي أعاد إحياء المكتبة الظاهرية وجعلها مكتبة عامة، وأنشأ المكتبة الخالدية في القدس، والشيخ عز الدين القسام الذي انتقل إلى فلسطين وقاد حركة إصلاحية جهادية، والشيخ كامل القصاب، والشيخ محمد بهجت البيطار والشيخ محمد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، وغيرهم، رحمهم الله أجمعين.

نماذج مشوهة للسلفية:

المدرسة السلفية -كشأن جميع المبادئ والمدارس- يمكن أن يَنتسب أو يُنسب إليها مَن يخالف أصولها ومبادئها، وحينها لا يكون من الموضوعية إلزام التيار أو محاسبته على تصرفات الاتجاه المخالف، فضلاً عن أن يعتبر هو الممثل الشرعي لتلك المدرسة. وفيما يلي نموذجان مِن النماذج المشوهة التي اشتهرت نسبتها للسلفية:

نُسبت جماعات منحرفة الفكر والعقيدة للسلفية لمجرد انتسابها لذلك أو استشهادها ببعض عبارات أعلام المنهج بعد نزعها من سياقها، مع مخالفة أصول هذه الجماعات وتطبيقاتها لأصول المنهج السلفي، بل ولأقوال أولئك الأعلام ومواقفهم، وهذا ليس من العدل في الحكم عليها

١- جماعات الغلاة:

وهي جماعات تعتمد تكفير الحكومات والأنظمة في الدول الإسلامية، وصولاً إلى الموظفين وعامة المجتمعات، وحمل السلاح عليها سبيلاً وحيدًا للتغيير والإصلاح، كما يحكمون على الجماعات الإسلامية بالردة والعمالة، أو الانحراف الشديد، ويستهدفونها بعملياتهم الإجرامية.

ويمثل تنظيم القاعدة بفروعه المختلفة مرحلةً مهمةً في تاريخ هذه الجماعات وتحولاتها، كما يعد تنظيم «الدولة الإسلامية» النسخة الأكثر تطورًا منها.

وتعود أفكار هذه الجماعات إلى خليط مِن أفكار التكفير والقتل، والفتاوى الشاذة، أسهم في تطويرها وبلورتها أفكار دخيلة، وشخصيات مشبوهة لم تُعرف بعلم ولا دعوة، بل يُشتبه بارتباطها بأنظمة استخباراتية.

وقد حاولت هذه الجماعات طيلة سنوات نشأتها البحث عن مشروعية لها في أقوال أهل العلم، فتنقلت في الاستشهاد بأقوال العديد من مفكري الجماعات الإسلامية ومشايخها، وكان مِنها أقوال وفتاوى لشخصيات سلفية معاصرة وقديمة بعد انتزاعها من سياقها.

علما أنّ مِن أهم وأول من ردَّ على هؤلاء وتصدّى لهم كان من الجماعات والشخصيات السلفية[1].

٢- جماعات الولاة:

وقد اشتهروا في الأوساط الثقافية والعامة باسم (المدخلية) أو (الجامية)، كما عُرفوا في الأوساط العلمية باسم الولاة؛ أخذًا من ولائهم المطلق للسلطة والحكام..

ولعل جذور نشأة هذا التيار كانت ردة فعل على حركة جهيمان العتيبي في احتلال المسجد الحرام بمكة المكرمة، لكن انتشارها وتوظيفها كان مع بداية تسعينيات القرن الماضي.

وأهمّ ما يميز هذا التيار عن غيره أمران:

١. الولاء المطلق للسلطة الحاكمة والطاعة الكاملة للحكام، والدفاع عن مواقفهم وتبريرها شرعًا -ومِن هنا جاء تسميتهم بجماعات الولاة- وإضفاء هالة من القداسة على الحكومات وشخصياتها، إلى حد اعتبار أي رأي مخالف للسلطة خروجًا على الشرع وإثارة للفتنة.

٢. الهجوم المستمر والعنيف الذي يصل إلى التفسيق والتبديع والتضليل لمختلف الحركات والتيارات الإسلامية، إلى درجة التعاون الفكري والأمني مع الحكومات ضدهم، وتحريضها على البطش بهم.

وإبان الغزو العراقي للكويت وقف هذا التيار في مواجهة الدعاة الرافضين لفكرة الاستعانة بالولايات المتحدة لإخراج القوات العراقية من الكويت، فوُجد فيه ما يمكن أن يُواجه به التيار الإسلامي الإصلاحي الذي خطف الأضواء، وجذب الأتباع، فدُعم ومُوّل وعُمل على تمكينه في عدد من المؤسسات العلمية والدعوية، وتصديره إلى دول أخرى، وقد ظهرت مواقف هذا التيار جليةً في الوقوف في وجه الحركات الشعبية ضد الاستبداد والظلم، ثم في التأييد لأنظمة الانقلاب على ثورات الربيع العربي.

(١) مثل مؤلفات الدكتور عبد الرحمن اللويحق، ككتاب (مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر). ومؤلفات الشيخ محمد زين العابدين في سلسلة الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، ككتاب: (جماعة المسلمين) و (التوقف والتبين)، و (خوارج العصر)، إضافة الى عدد من المقالات المهمة في مجلة السنة. ومجموعة دراسات وبحوث وفتاوى هيئة الشام الإسلامية تناولت ما تثيره جماعات الغلو من مسائل وشبهات، ومنها: (كتاب: فتاوى هيئة الشام الإسلامية)، و(كتاب: شبهات تنظيم الدولة وأنصاره والرد عليها)، و (كتاب: تصور الغلاة لمفهوم الدولة في الإسلام، من جماعات الجهاد المصرية إلى القاعدة).

أبرز معالم منهج السلف

١. الرجوع إلى الكتاب والسنة، واعتبارهما الأصل الذي يتحاكم إليه
٢. الاحتجاج بالسنة النبوية الصحيحة واعتبارها من أصول التشريع
٣. الاهتمام برواية الأحاديث النبوية، وتمييز صحيحها من سقيمها
٤. تقديم فهم الصحابة والتابعين للنصوص الشرعية على فهم مَن بعدهم
٥. حصر مصادر تلقي العقيدة في نصوص الوحي المعصوم كتابًا وسنةً، والاحتجاج بما ثبت منها
٦. عدم معارضة النصوص الشرعية بالعقول والآراء وغيرها
٧. عدم التعبد لله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، ومنع الابتداع في الدين
٨. حصر العصمة للأنبياء فيما يبلغون عن ربهم، مع الإيمان بكرامات الصالحين والأولياء
٩. التجديد والاجتهاد بضوابطه الشرعية
١٠. الحفاظ على جماعة المسلمين ووحدة كلمتهم
١٠. العناية بالتزكية والأخلاق وعلى رأسها العدل والإنصاف

ومن اللافت في دراسة هذين التيارين (الغلاة والولاة):

١. اتفاقهما -على الرغم مِن التناقض الشديد بينهما- على موقف عدائي ومتشنج من الجماعات والحركات الإسلامية في مختلف دول العالم الإسلامي.
٢. اتخاذهما موقفين متناقضين مِن مسألة الحكم، ونسبة كلا الموقفين إلى منهج السلف! وهذا التناقض يوضح بجلاء حقيقة نسبتهما إلى منهج السلف!

وأخيرًا:

فالسلفية الحقة: تعني العودة إلى الإسلام النقي الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، والأخذ بمنهجهم في فهم الدين، وطريقتهم في العبادة، ورحمتهم وعدلهم في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين.

وإذا رامت جماعةٌ أو فرقة بلوغ هذه الغايات النبيلة فأخطات الطريق أو حادت عنه، لا يحملنا هذا على تخطئة الأصل.

والسلفية الحقة: تتسم بالوضوح والمرونة، فهي منفتحة على الآخرين، وتؤمن بالعمل المشترك، وتراعي أدب الاختلاف، وتمتاز بقدرتها على الحوار وإنصاف المخالفين، وأعمالها ومساهماتها العلمية والمجتمعية والسياسية تصب في بناء الإنسان وإصلاح المجتمع والدفاع عن الأمة.

كما أنَّها تحرص غاية الحرص على وحدة الأمة، وهي لا تسعى إلى إنشاء مذهب جديد يزيد الأمة فرقة وشتاتًا، بل تؤمن بالعمل للمصلحة العامة، ومراعاة الواقع، والبعد عما يثير الخلاف والشقاق والنزاع، مستندة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومسترشدة بالدليل الشرعي في بيان الحق، مستخدمة الحجة والإقناع في إظهار الصواب والسداد.

السلوك الاجتماعي ومحدّداته

د.محمد بن سليمان الفارس(*)

هل يختلف سلوك الفرد عن سلوكه عندما يكون في جماعة؟ وكيف يحصل الاختلاف؟ وما هي مصادر السلوك الجمعي؟ وهل يمكن التأثير عليه إيجابًا أو سلبًا؟ وكيف نقرأ الأحداث والتحركات الجماهيرية الحاشدة؟ وما هو الدور الملقى على عاتق المربين والمصلحين؟ تحاول هذ المقالة الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال علمي النفس والاجتماع.

مقدمة:

كثيرًا ما تفسَّر التحولات المفاجئة والأحداث الكثيرة التي تحصل في فترات الحروب والانقلابات والثورات على أنها نتيجة سياسات مخططة، لكن الدراسات تكشف عن أسباب أخرى وراء هذه الأحداث؛ وهي التغيرات التي تصيب أفكار الجماعات والأفراد، وبما أن الفترة الحالية في منطقتنا تمثل فترة انتقالية وفوضوية، لذا قد يكون من المناسب دراسة السلوك الاجتماعي، دراسة تحليلية تفسيرية لفهم آليات الانتقال والتغير والاستقرار.

ويتساءل مراقب: على أي صيغة وشكل ستكون مجتمعاتنا التي هبّت فيها الثورات؟ فدخول الشعوب في الأحداث السياسية، وتحولها من الانقياد إلى المشاركة أو التأثير في القيادة يمثل تغيرًا في واحدة من الخصائص التي كانت تحكمها قواعد المكانة والوظيفة المحددة، وهذا التحول صفة من صفات عصرنا. والتجمعات التي انخرط فيها الأفراد -حتى وإن لم تكن مثالية- فإنها تجمعات واعية لمصلحتها العامة، ولها مطالب عامة تتمثل في تغيير أنظمة الحكم العسكرية المستبدة إلى أنظمة حكم رشيدة، وإنهاء الفساد الإداري، والمطالبة بالعدالة والحرية. والأفرادُ عمومًا في هذه التجمعات يميلون للعمل ولا يميلون للتأمل والتفكير المجرد، والتنظيم يجعلهم قوة لا تقاوم.

ولو أردنا التفصيل قليلاً في فهم السلوك الإنساني فإننا نقول: إنَّ الإنسان يولد ضمن جماعة عاجزًا عن تلبية حاجاته بمفرده، فوجوده واستمراره في هذه الحياة مرتبط بوجود الآخرين من حوله، فبحركته في الحياة تُلبَّى حاجاته وتتوفر

(*) أستاذ علم الاجتماع بجامعة ماردين آرتوكلو، مدرس سابق بجامعة حمص.

متطلباته، وتحقّق المحافظة على أمنه وسلامته، وهو في ذلك يتأثّر بهم ويؤثّرون به، فتنشأ بينه وبينهم علاقات اجتماعية تفرضها طبيعة الحاجة وظروف المرحلة التي يمر بها، وبذلك تتأثر ذات الفرد بالمحيط الاجتماعي من حوله، من خلال المواقف التي يتعرض لها مع الآخرين.

حياة الإنسان وشعوره بذاته رغم أنها تولد منفصلة عن ذوات الآخرين إلا أنها تتأثر بهم ولا تفصح عن إمكانياتها إلا ضمن البيئة الاجتماعية التي تحدِّدها، وهذا ما يجعل (الأنا) الفردية (أنا) اجتماعية في صميمها وجوهرها

السلوك الاجتماعي في مقابل السلوك الفردي:

السلوك الاجتماعي يتكوَّن نتيجة تفاعل الفرد مع الآخرين ضمن ظروف ومواقف الحياة، في الأسرة، وفي المدرسة والمجتمع، وفي الوظيفة والجندية والتسوق والمهنة وغيرها.

«فحياة الإنسان وشعوره بذاته رغم أنها تولد منفصلة عن ذوات الآخرين إلا أنها تتأثر بهم ولا تفصح عن إمكانياتها إلا ضمن البيئة الاجتماعية التي تحدِّدها، وهذا ما يجعل الأنا الفردية أنا اجتماعية في صميمها وجوهرها»[١].

فكيف نفهم سلوك الإنسان الاجتماعي في علاقته مع الآخرين؟ هل هو نابع من ذاته (دوافعه، تفكيره، تاريخه النفسي في طفولته)، أم أنه نابع من المواقف التي تحيط به ومن تأثير سلطة الجماعة عليه؟

مبدئيًا لا بد من القول: إنَّ سلوك الفرد وحده يختلف عن سلوكه الاجتماعي (أي علاقته مع الآخرين)، وهذا أيضًا يختلف عن سلوك الجماعة.

فسلوك الجماعة له طبيعته التي تميّزه عن سلوك الفرد في علاقته مع الأفراد الآخرين، وعن سلوكه في الجماعة. في هذا الجانب نجد كتاب (سيكولوجية الجماهير) لغوستاف لوبون يُفصِّل كثيرًا في مسائل: كيف تتحرك الجماعة؟ وكيف تهدأ؟ وكيف تثور؟ وكيف تُقاد؟ وكيف تكون شريرة؟ وكيف تكون خيّرة؟ ...

والسلوك عمومًا نَقصد به: كلَّ أوجه النشاط التي يقوم بها الفرد والتي يمكن ملاحظتها، مثل حركات الفرد وطريقة استخدامه للغة وتخيلاته وقدراته وايماءاته... إلخ[٢].

فالسلوك الفردي هو عمل يقوم به الفرد لتلبية حاجاته ودوافعه غير متأثر بالعوامل الاجتماعية، في حين أن السلوك الاجتماعي يتأثر بعوامل ودوافع اجتماعية ويهدف للمحافظة على كيان الشخص باعتباره عضوًا في جماعة كالأسرة أو المدرسة أو فريق اللعب أو المهنة وغيرها، وهذا السلوك الاجتماعي يشمل توافق الشخص في تعامله مع غيره[٣].

السلوك الفردي هو عمل يقوم به الفرد لتلبية حاجاته ودوافعه غير متأثر بالعوامل الاجتماعية، في حين أن السلوك الاجتماعي يتأثر بعوامل ودوافع وأهدف اجتماعية للمحافظة على كيان الشخص باعتباره عضوًا في جماعة

العمليات النفسية المؤثرة في السلوك الاجتماعي:

أثناء تفاعل الفرد مع بيئته تحدث له أنماط مختلفة من عمليات التأثير بعضها يرتبط بالبيئة الاجتماعية، ويُطلق عليها عمليات اجتماعية، وبعضها يرتبط بأحواله الذاتية يطلق عليها عمليات نفسية (مثل: العاطفة والتعلم والتذكر والدافعية والرغبة في السيطرة والثقة بالنفس ... وغيرها).

ومن أهم هذه العمليات النفسية عاملان اثنان لهما تأثير يفوق غيرهما في تشكيل السلوك الاجتماعي للفرد، وهما العاطفة والتذكر.

* **العاطفة:** هي مجموعة انفعالات تقود الشخص لحب شخص آخر، والاقتداء به كالأب والأم والصديق أو المعلم أو القائد. أو حول موضوع معين كالوطن والبيت والمدرسة، أو

(١) السلوك الاجتماعي خصائصه ومظاهره، ليلى داود، وأحمد الأصفر، ص (١١).
(٢) السلوك الاجتماعي قراءات في علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته، محمود عكاشة، محمد شفيق، ص (١٠).
(٣) العلوم السلوكية، حسن محمد خير الدين، ص (٤٢-٥٠).

تقوده لاعتناق فكرة معينة، ومحاولة العمل بما تقتضيه هذه الفكرة كالشورى والتعاون والديمقراطية والحرية والكرامة والتضحية...، وتنقسم العواطف بحسب اتجاه الانفعال الغالب فيها: إما سالبة كالحقد والكُره، أو موجبة كالحُبِّ والفرح.

وتنشأ العواطف من تكرار اتصال الفرد بموضوع معين أو شخص معين أو فكرة معينة في مناسبات مختلفة. وتختلف العاطفة السائدة من شخص لآخر فقد تكون العاطفة دينية عند شخص، أو تكون عاطفة وطنية عند آخر، وقد تتمحور عاطفته حول العلم أو الذات، ... إلخ.

فإذا كانت العاطفة الدينية هي السائدة عند أحد الأشخاص فإنها تستحوذ على تفكيره وتساعده في توجيه سلوكه نحو إرضاء الله وارتياد الأماكن المقدسة وفعل الخير، وإذا كانت العاطفة السائدة هي حب الوطن فإنها توجه الفرد وسلوكه ليسخّر كل أنماط النشاط فيما يخدم هذه العاطفة، ويكون سلوكه سلوك المُضحي في سبيل إشباع هذه العاطفة[1].

❋ **التذكر:** هو استعادة الخبرات السابقة سواء كانت بصرية أو سمعية أو ذوقية أو لمسية أو حركية، ومن أمثلته أن يمر شخص بجانب آخر فينفعل ويصرخ أو يغمى عليه، وقد يهجم عليه بالضرب وغيره، لأنه تذكر أن هذا الشخص الذي مر بجواره كان سجَّانه الذي حقق معه في السجن، وعذبه وأساء معاملته.

أو يسمع من أحدهم كلمة عابرة قيلت في الطريق فتنهمر دموعه لتذكره بهذه الكلمة شخصًا عزيزًا عليه، أو يتبسم لأن هذه الكلمة أحيت عنده شعورًا سعيدًا يحبه في وقت سابق، وهكذا.

فالتذكر هو الذي جعله ينفعل ويتصرف تصرفات غير مفهومة للآخرين.

أطوار السلوك الاجتماعي في ظل الاستبداد:

بالنظر في الأحداث الجماعية الكبرى (كالثورات مثلاً) يمكن التساؤل عن كيفية تكون الأنا الجمعي الذي يوحِّد مشاعر الجماعة وسلوكها، وكيفية افتراق الأفراد ويتصف سلوكها بالفردية.

تمرُّ الجماعة في ظل الاستبداد في ثلاثة أطوار من النمو النفسي: مرحلة القهر، ثم مرحلة الاضطهاد، وأخيرًا التمرد.

١. مرحلة القهر:

في المرحلة الأولى يعيش الإنسان في عالم من العنف المفروض عليه من الخارج من قوة أعلى منه: (كالشرطي والمدير والقاضي والحاكم)، والذي يشكل تهديدًا فعليًا لقوته وأمنه وسلامته، هذا العنف يجعله يعيش حالة فقدان السيطرة على مصيره فلا يجد أمامه سوى الرضوخ والتبعية، في هذه المرحلة يبخس الإنسان حق نفسه ويبالغ في تمجيد المتسلط وينهار اعتباره لذاته ويتضخم تقديره للمتسلط. وتدور محاولات التمرد على المتسلط عادةً حول التكاسل أو التخريب، أو اللجوء لأساليب رمزية كالنكات[2].

وقد تطول هذه المرحلة لكنها لا تستمر دائمًا؛ فلا بد أن يشعر الإنسان في لحظة ما بالرغبة في استعادة تقديره لذاته، فينتفض، لكن ليس مباشرة، بل بعد قدر من التهيئة.

٢. مرحلة الاضطهاد:

حيث يدخل الشخص في حالة غليان داخلي وتوتر نتيجة العدوانية والقمع الذي كان يمارَس عليه، فيبدأ بالتفلُّت من القمع وممارسة العدوانية على أقرانه الذين يساوونه في العمر والمكانة بدلاً من ممارسته على من هو أضعف منه، فالإنسان لا يمكنه احتمال القهر بشكل دائم، ولا بد له من إثارة الشعور الداخلي بالأفكار والتخيلات بالكرامة وبشيء من الاعتبار الذاتي بنظر نفسه ونظر الآخرين. ففشله في تحقيق ذاته يولد له مشاعر ذنب شديدة الإيلام للنفس، ولا يمكن كبتها أو إنكارها، هذه المشاعر بدورها تولد عدوانية شديدة لا بد من تصريفها خارج النفس. فيبدأ بإسقاط ما في نفسه على الآخرين؛ فإذا أساء الظن يسقطه على غيره، وإن تآمر على غيره يعتبر الآخرين متآمرين مثله، فيبحث عن مخطئ حتى يُحمِّلَهُ أخطاءه وتقصيره. فاتهام الآخرين بالعيب يجعل الإنسان المقهور يتخلص من عيبه الذاتي فيجعل الاعتداء عليه مشروعًا لأنه عدوان على رمز العيب.

(١) السلوك الاجتماعي قراءات في علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته، مرجع سابق، ص (١٥).
(٢) التخلف الاجتماعي، مصطفى حجازي، ص (٤٠) وما بعد.

وفي هذه المرحلة يتحول الإنسان من متلقٍّ للعنف إلى عداوة على أقرانه ونفسه ومن يساوونه في المكانة، فيصب عنفه على الشبيه الآخر المقهور، ويبدأ التشفي به[١]، وهي مرحلة وسطى بين تلقي الاضطهاد والتمرد عليه.

٣. مرحلة التمرد:

فالشعب الذي يقال عنه إنه لا يمكن أن يفهم إلا لغة القسوة، يحسم أمره الآن، ليُعبر عن نفسه بلغة القسوة. فالمتسلط لا يفهم إلا لغة الشدة[٢].

يصل المجتمع المقهور إلى العنف في مراحل نمو سلوكه الاجتماعي، فبعد فترة العلاقات التي يضطهد فيها الناس بعضهم للتخلص من القهر، ينتقل المجتمع إلى العنف المسلح، وهذه المرة ليس ضد الأقران بل ضد المتسلط المسؤول عن القهر.

ففي ظل الاستبداد يتوحد الشعور الجمعي للجماهير فتتحرك وفقًا لشعورها ضد الخطر الذي يهددها، وبمجرد توقف الحركة الثورية الجماهيرية، يعود الأفراد إلى السلوك الفردي، فنجد الاختلاف في الرأي والموقف والمشاعر، وهذا طبيعي، لأن فترة توحد (الأنا) كانت نتيجة شعور الكل بالخطر، وبعد ذلك لا بد من بناء فكري يتناسب مع المرحلة الجديدة التي تنتظرها الجماعة وتريدها، فيبدأ كل فرد في التعبير عن وجهة نظره التي يقتنع بها ويؤمن بها، لذا تظهر الاختلافات.

ويلحظ الناظر أنه بعد خفوت حدَّة الخطر الخارجي، وبدءِ سريان شيء من الحرية، يتسلل إلى عواطف الناس وهواجسهم شعورٌ يجنح بالناس إلى التعبير عن آرائهم بحرية دون قيود. ولذلك كما نلاحظ في المجتمعات التي قامت بالثورة، فإن سلوك الناس تجاه بعضهم الآن يتميَّز بشيءٍ من الأنانية والفردية كما يصفه المراقبون، وهذا ليس خطأ وإنما تفسيره أن الإنسان الذي ينتفض على القهر وينشد الحرية والعدالة والمساواة فإنه الآن مقتنع بها ويريد تطبيقها دون مداهنة، لذا يبدو للآخرين أن السلوك تغير وأن هذه صفة سلبية، وهي في الحقيقة مرحلة من مراحل النمو النفسي، ويمكن تجنب الأنانية والنزاع بالتعامل بالحسنى لأنه سيؤدي للإجابة بالمثل.

> **في ظل الاستبداد يتوحد الشعور الجمعي للجماهير فتتحرك ضد الخطر الذي يهددها، وبمجرد توقف الحركة الثورية الجماهيرية، يعود الأفراد إلى السلوك الفردي، فتختلف الآراء والمواقف والمشاعر، لأنّ فترة توحّد (الأنا) كانت نتيجة شعور الكل بالخطر**

محددات السلوك الاجتماعي:

لمحاولة فهم السلوك، وفهم العوامل التي تؤثر في تشكيله، يُطرح السؤال التالي: هل السلوك الاجتماعي للفرد نابع من خصائص الفرد النفسيّة -أي مدفوع بأسباب داخلية- أم ناتج عن أسباب خارجية كالظروف المحيطة بالشخص، والمواقف التي وُجد فيها؟.

ثمة اتجاهان في شرح وتفسير السلوك الإنساني: الأول نزوعي (dispositionism)[٣] أي إن الأفكار التي يحملها الأفراد في أذهانهم، ومعتقداتهم، وشخصياتهم «العوامل الداخلية» هي التي تقف وراء سلوكهم، وهم بذلك أحرار ومسؤولون عن تصرفاتهم.

والثاني موقفي (situationism) أي إنَّ طبيعة الموقف المحيط بالفرد - وهي «العوامل الخارجية» كالوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي وما إلى ذلك - هي التي تُمكّن من تفسير السلوك، ومن ثَم تفسَّر كثير من الظواهر الاجتماعية على أساس الموقف. و«كانت فكرة التمييز بين العوامل النزوعية والعوامل الموقفية بوصفها قوى فاعلة في السلوك الإنساني فكرة محورية في علم النفس الاجتماعي، وما تزال، ويأخذ بها كبار الباحثين في هذا المجال في الوقت الحاضر»[٤].

فقد تركت أعمال سيغموند فرويد وأتباعه بصمة قويّة في علم النفس السياسي، ولعل أبرزها ما يعرف بالسيرة النفسيّة أو التاريخ النفسي (psychostory) الذي تناوله دايفد

(١) ينظر: المرجع السابق، ص (٥١) وما بعد.
(٢) مجلة: دراسات عربية، عباس محمد علي، السنة السابعة، العدد ٢، بيروت، (١٩٧٠).
(٣) علم النفس السياسي، دايفد باتريك هوتون، ترجمة ياسمين حداد، ص (١٩).
(٤) المرجع السابق.

ملخص الفرق بين اتجاهي تفسير السلوك الاجتماعي

الاتجاه النزوعي في تفسير السلوك الاجتماعي

- يعتمد على طبيعة الأفكار والمعتقدات التي يحملها الأفراد في أذهانهم
- تبقى الأفكار والمعتقدات مؤثرة في جميع الظروف
- تظهر بشكل رفض للتصرفات الخاطئة وإن كان الجميع بفعلها
- يتبناها المتأثرون بعلم النفس المعرفي وعلماء النفس السياسي

الاتجاه الموقفي في تفسير السلوك الاجتماعي

- يعتمد على طبيعة الموقف المحيط بالفرد سواء كان سياسياً أو اقتصاديا أو غيره
- المؤثر هو ما تطلبه السلطة أو الإشراط الذي تفرضه أو الاندفاع الجماعي المحيط
- تفترض عدم وجود شخص طيب وآخر سيء
- يتبناها المتأثرون بعلم النفس الاجتماعي وعلماء السياسة

هوتون في الفصل السابع من كتابه علم النفس السياسي. ويؤكد نموذج السيرة النفسية (psychobiography)، وهي أنَّ خبرات الطفولة تؤدي دورًا حاسمًا في تطور الشخصية مستقبلاً، ومن ثم في أدائها السياسي. وعلى هذا النحو، درس بعض علماء النفس السياسي شخصيات مشهورة في عالم السياسة ليفهموا تصرفاتها ويشرحوها، وقد ذهب العالمان ألكسندر جورج وجولييت جورج في كتابهما (وودرو ولسون والكولونيل هاوس) إلى القول: إن عناد وتصلّب الرئيس الأميركي ولسون في قضايا مهمة كموقفه من إقرار معاهدة عصبة الأمم، إنما يمثل تعويضًا للميل المفترض لدى والده للصرامة في التربية، وإلى حرمانه الدفء والمكافآت العاطفية.

ومن جهته، يزعم جستن فرانك (Justin Frank) في كتابه المعنون «بوش على الأريكة: سبر عقل الرئيس» الصادر عام ٢٠٠٤ أن شخصية جورج بوش السياسية تأثرت كثيرًا بالمعاملة التي نالها من والديه، إذ كان بوش الأب غائبًا دائمًا عن الأسرة بسبب مشاغله السياسية، بينما أمه كانت امرأة متسلّطة تفتقر إلى الدفء العاطفي، فكان ردّ الفعل على هذه التنشئة القاسيّة، تطور منظور مانوي (Manichaean)[1] لدى بوش قائم على ثنائية الخير والشرّ، وتنامي أوهام العظمة والقوّة لديه، ويؤكّد فرانك في كتابه هذا أن سلوك بوش السياسي يعكس «دافع طفل معوق انفعاليًا، لم يلق الرعاية الكافية».

> **يرى علماء النفس أن اتخاذ القرارات ومنها السياسية والسلوكية ليس نتاج عمليات معرفية خالصة، ومعالجات عقلية متروية أو متجرِّدة فحسب، فنحن بشر ونادرًا ما ننظر إلى الأشياء والحوادث بحيادية، وسلوكنا معظمه يكتنفه الانفعال**

الشروط الموقفية بوصفها محددًا للسلوك الإنساني:

هناك فكرة تقول إن الأفراد يتصرفون على نحو متشابه حين يوضعون في موقف مُعيّن[2]. وهناك أدلة علمية على ذلك، منها أبحاث المدرسة السلوكية (behaviourism) وبخاصة أعمال

(١) مانوي: يعني اتجاهين مختلفين في آن واحد عند الشخص.
(٢) المرجع السابق، ص (١٣٧) وما بعد.

سكنر (Skinner) التي أثّرت بصورة كبيرة في علم النفس عمومًا، وعلم النفس السياسي خصوصًا في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وتعد السلوكية من أهم التيارات الموقفية، بل تمثّل نموذجًا راديكاليًا لوجهة النظر الموقفية، إذ اعتبرت آلية «الإشراط والتعزيز» السبب الرئيس للسلوك.

ويزعم سكنر أن البشر يمكن أن يُدَرّبوا من خلال الإشراط على القيام بالسلوك المقبول اجتماعيًا، والإحجام عن السلوك غير المقبول، ويذهب بعيدًا في وجهة نظره هذه فيفترض أنه يجب على الدولة أن تعمل على إشراط مواطنيها (أيّ تعلمهم بالثواب والعقاب) على الأخذ بالسلوك المرغوب فيه وتجعلهم أفضل (فالسلوك الاجتماعي للأوروبيين الملتزمين بنظافة البيئة وقواعد السير هي نتيجة الجزاء المادي الباهظ عند المخالفة، فإشراط الدولة بالجزاء عند المخالفة يجعل الناس تلتزم بالقاعدة خوفًا من النتائج المالية المرهقة).

وعلى الرغم من أن هناك حُججًا قويّة تدعم السلوكية، فهناك أيضًا حجج قويّة تعارضها، فالإشراط محدود التأثير، وليس فعّالاً دائمًا. ثم إنَّ وجهة النظر هذه قد تقود إلى الفاشية والشمولية، فمَنْ المُخوّل بشأن ما يجب أن نُشرط عليه أو ألا نكون عليه؟ وأخيرًا، إن قدرتنا على الاختيار، وحريّتنا بهذا الشأن هما جزءان من إنسانيتنا.

أما المنحى الموقفي الثاني الذي يعرض للاستدلال على الظروف وأثرها في الخضوع للظروف، فهو موضوع الطاعة وتجربة الصدمات الكهربائية الشهيرة التي قام بها عالم النفس الاجتماعي ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) في هذا الصدد. وقد ذاع صيت هذه التجربة، لأن نتائجها بعثت على القلق، فهي توحي بأن معظم البشر (٦٥٪) قادرون على ارتكاب أفعال تخالف معتقداتهم الأخلاقية، حين يُطلب منهم هذا من سلطة يرونها شرعية[١].

ويخلُص ملغرام إلى أننا جميعًا قد نخالف أعزّ مبادئنا وقيمنا الإنسانية حين نواجه موقفًا تحثنا فيه على الطاعة سُلطة نرى أنها شرعيّة، ونقع في خطأ كبير حين نفترض أن (الأفعال الشريرة) لا يرتكبها إلا (أناس أشرار).

وفي ضوء تجارب ملغرام عن الطاعة جرى تفسير كثير من المجازر والمذابح التي قام بها أشخاص عاديون في ظروف معيّنة، ولكن الاتجاه الموقفي في تفسير الطاعة، وتفسير ظاهرة القتل الجماعي، واجه كثيرًا من النقد، فإضافة إلى الفروق الثقافيّة في الاستعداد للطاعة، هناك صعوبة كبيرة في تفسير سبب رفض قسم من مبحوثي ملغرام (٣٥٪) طاعة السلطة عندما جاءت الأوامر مخالفة لما تمليه عليهم ضمائرهم أو قيمهم؟ أليست قيم ونزعات هؤلاء الأشخاص هي من دفعتهم لرفض الطاعة؟

وفي كتاب بعنوان «صناعة صندوق فاسد» لعالم النفس الأمريكي فيليب يقول: «ضع شبابًا أصحاء في موقف بغيض، أي في مكان سيئ، ستجد أن الموقف يهيمن عليهم». وبرأي زمباردو، نحن لسنا (سيئين) أو (أشرارًا)، ولكننا يمكن أن نتصرف بطرائق غير أخلاقية إذا ما أرغمتنا الظروف على ذلك».

ولكن حتى في تجربة زمباردو كان ثمة حُرّاس طيبون وحراس سيئون، ولم يتصرف بالطريقة الساديّة التي أشارت إليها التجربة إلا ثلث المبحوثين، من ثَم يمكننا أن نتساءل بالطريقة نفسها التي تساءلنا بها فيما يخص تجربة ملغرام: أليست قيم بعض المبحوثين ونزعاتهم هي من دفعت بهم ليكونوا حراسًا طيبين؟

التفكير الجمعي له مخاطر عدة، فالأفراد حينما يكونوا متجمهرين فإنَّ من خصائصهم القابلية للاستهواء، فتذوب شخصية الفرد بشخصية الجماعة المتجمهرة، ويصبح سلوكه مشابهًا لسلوكها

اكتشف علماء النفس أن اتخاذ القرارات ومنها السياسية والسلوك ليس نتاج عمليات معرفية خالصة، ومعالجات عقلية مترويّة أو متجرِّدة على غرار ما يفعله جهاز الكمبيوتر بالمعلومات الواردة إليه فحسب، فنحن بشر ونادرًا ما ننظر إلى الأشياء والحوادث بحيادية، وقراراتنا وسلوكنا معظمه -إن لم يكن جميعه- يكتنفه الانفعال والمشاعر بمثل الغضب والحب والكره والإعجاب

(١) ينظر: المرجع السابق، ص (٨١) ومابعدها.

والحزن والخوف، وما إلى ذلك. وموضوع الانفعال والعاطفة وتأثيرهما في عالم السياسة أمر معلوم مشهود.

وفي النهاية سيكتشف القارئ أنه كما كانت لوجهة النظر الموقفية نقاط قوّة وضعف، فللنزوعيّة أيضًا إيجابياتها وسلبياتها، وسيجد نفسه من جديد عالقًا أمام السؤال عما إذا كانت سمات الفرد ونزعاته الشخصيّة هي من يحدد سلوكه أم المواقف وطبيعتها وخصائصها.

الجماعة وتأثيرها في سلوك الفرد:

في أبحاث إيرفنغ جانيس (Irving Janis) عن كيفية تغيّر سلوك الفرد ضمن الجماعة، يتساءل جانيس عن السبب الذي يدفع بأناس أذكياء إلى اتخاذ قرارات ضعيفة في كثير من الأحيان عندما يوجدون ضمن جماعات؟ وما الذي يمنع الناس من قول ما يفكرون به وهم داخل جماعة؟ وفي كتابه الشهير التفكير الجمعي (groupthink) يقول جانيس إن التفكير الجمعي له مخاطر عدة، فالضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها الفرد ضمن الجماعة، وبخاصة إذا كان من المفترض أن تتخذ هذه الجماعة قرارًا معينًا بخصوص موضوع ما، قد تكبّل أذكى الأذكياء. بطريقة أخرى يخلص جانيس إلى أن الفرد ممكن أن يكون أكثر ذكاءً وفاعلية حين يعمل وحده بدلاً من أن يعمل ضمن مجموعة، ومقولته الشهيرة «هناك أذكياء يصنعون قرارات غبية حين يتخذونها مع بعض» تلخص ذلك.

فالأفراد حينما يكونوا متجمهرين فإنَّ من خصائصهم القابلية للاستهواء[1]، فتذوب شخصية الفرد بشخصية الجماعة المتجمهرة، ويصبح سلوكه مشابهًا لسلوكها، من خلال عملية الامتثال لسلوك ومعايير الجماعة خوفًا من نبذه إن هو خالفها، ورغبته في نيل الاحترام والتقدير، ومن العوامل التي تشكل أفكار الجماعة وتحرك سلوكها (القادة، والكلمات التي يستخدمونها (الشعارات) فقوة الكلمات التي يستخدمها القادة هي التي تمتلك أكبر قدرة على التأثير والفعل، فالعقل لا يقاوم الحركات التعبيرية والكلمات)[2] وبالإضافة للشعارات فإن الأوهام التي يختزنها الأفراد تحرك سلوكهم، وتأتي التجربة التي تبني أفكارًا جديدة من وحي الواقع الذي يعيشونه.

ينبغي على المربين والعاملين في مجالات التربية والتعليم العناية بالتربية الفردية وتعزيزها بالقيم الإسلامية الأصيلة، وعلى كاهل المسؤولين في القطاعات التعليمية والإعلامية، وفي التجمعات الجماهيرية واجبٌ أكبر في العناية بالممارسات والنظريات التي تشكل العقل الجمعي وتقود حركة الجماهير لخطورتها وقوة تأثيرها

بين الموقفية والنزوعية:

في الكلام السابق ذكرنا مقاربات موقفية متمثلة بنظرية سكنر السلوكية، ونموذج ستانلي ملغرام في الطاعة، ونظرية الصندوق الرديء لزمباردو، ومقاربة جانيس في التفكير الجمعي، وتتفق جميعًا على أن نزعات الفرد لا تحدد سلوكه بقدر ما يحدده الموقف الذي يجد نفسه فيه. وهذه المقاربات تعرضت كثيرًا للنقد وبقوة، خصوصًا من علماء نفس تبنّوا وجهة النظر النزوعية في تفسير السلوك.

فالتعصّب العنصري مثلاً كظاهرة سلوكية تظهر في مجتمع ما في ظروف معينة مثل الثورات والصراعات كغيره من الظواهر السلوكية، قد يَنتج عن اعتقادات يحملها الفرد أو عن طباع شخصية ونفسية معينة، أو قد يكون نتاجًا لعوامل موقفية عدة تشجّع على ممارسته، وتسمح به.

فكريستي مونرو (Kristen Monroe) مثلاً حاولت أن تفسر مفهوم الإبادة الجماعية بأنه «يُشير إلى التدمير المقصود والمنهج للبشر، ليس بسبب أفعال فردية أو ذنوب ارتكبوها، وإنما بسبب انتمائهم إلى جماعة قومية، أو إثنية، أو عرقية، أو دينية». وتقترح تفسيرًا مهمًا جدًا لظاهرة الإبادة الجماعية، تؤكد فيه ضرورة توافر عوامل عدة، منها ما هو موقفي، ومنها ما هو نزوعي، ويمكن تصنيفها في ثلاثة مستويات:

(١) قبول الايحاءات والأفكار من دون مناقشتها مناقشة عقلية خاصة إن صدرت من شخص له اعتبار.
(٢) سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة هاشم صالح، ص (١١٦).

» أولاً: المستوى الديمغرافي، فلا بد من أن يكون هناك تقسيمات إثنية واضحة.

» ثانيًا: المستوى السياسي، فمن الضروري توافر بعض الشروط بمثل الضائقة الاقتصادية أو غياب الاستقرار السياسي أو الحروب والثورات.

» ثالثًا: المستوى النفسي الاجتماعي بمثل التصورات الذهنية والتنميط (شخص من طائفة ارتكب سلوكًا إجراميًا فيُحكم على كل الطائفة بالإجرام وهكذا) والخوف، وما إلى ذلك.

والسلوك الإرهابي أيضًا مثال على محاولة فهم ما الذي يحدده هل هو المقاربة الموقفية أو النزوعية.

والجدل قائم منذ زمن بعيد بين أصحاب النظرة النزوعيّة من جهة وأصحاب النظرة الموقفيّة. وسيستنتج القارئ أن المتأثرين بعلم النفس الاجتماعي يرون أن العوامل الفردية أقل أهميّة من الضغط الاجتماعي والشروط الموقفية، بينما يتبنى المتأثرون بعلم النفس المعرفي والإرث القديم لعلم النفس العيادي الحُجّة المضادة. وبوجه عام، فإن علماء النفس السياسي يميلون إلى المقاربة الأولى، أما علماء السياسة فيتبنون المنحى الثاني.

وفي الختام:

ما يهمنا هنا بعد هذا التناول المتعمق لكلا الموقفين وحجج ومنطلقات كل منهما، وتأثير كل منهما في فهم السلوك الاجتماعي والعوامل التي تشكله، هو خطورة هذه العوامل سواء كانت نزوعية أو موقفية، وبأنه كما ينبغي على الآباء والمربين والعاملين في مجالات التربية والتعليم والتثقيف العناية بصقل التربية الفردية وتعزيزها بالمثل والقيم الإسلامية الأصيلة، فالمسؤولون ومن يملكون القرار في القطاعات التعليمية والإعلامية، وفي التجمعات والقطاعات الجماهيرية .. على كاهلهم واجب أكبر في العناية بالرسائل والممارسات والمحاكمات والنظريات التي تشكل العقل الجمعي وتقود حركة الجماهير وتشكل حركة الأمة؛ لخطورة هذا الجانب من جهة، ولقوة تأثيره من جهة أخرى.

دعاة على أبواب جهنم: توصيف ومآلات

أ. موفق شيخ إبراهيم (*)

على كاهل الدعاة إلى الله مسؤولية عظيمة في الأخذ بأيدي الناس إلى مراد الله منهم بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى بصيرة وهدى، خصوصًا في هذا الزمان الذي كثر فيه الداعون إلى أصناف الضلالة وأنواعها، مدججين بالأسباب المادية والأدوات العصرية، يُلقون من يُجيبهم إلى ضلالهم في غضب الله وسخطه.

مدخل:

في هذه المرحلة الصعبة التي تمرُّ بها الأمة المسلمة، كم نحن بحاجةٍ إلى الرجوع لنصوص الوحي وتفعيل دورها من جديد في تصحيح مسارِ الأمة، وإعطائها الرؤية الواضحة في جميع نواحي الحياة، مما يجعلها على بصيرةٍ من أمرها، فتجتمع حول غاياتٍ نبيلةٍ تبعث في حياة الناس روح التفاؤل، وتحفزها نحو العمل لإيجاد البديل الثقافي والحضاري لظلمات التيه التي سارت فيها البشرية.

ولتحقيق المشروع الإصلاحيِّ الذي يحقق للأمة الهداية، ويحفظ لها ذاتيتها، ويعمِّق فيها الشعور بالوسطية والمسؤولية تجاه البشرية، جاء التوجيه الإلهي: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وإنَّ أولى ما تتحقَّق به الهداية اتِّباع محمد ﷺ؛ الصادق الأمين، والناصح العطوف، والرحمة المهداة.

تحذيرات نبوية من أعلام الضلالة:

تحوي هدايات السنة النبوية الشريفة ما يعصم المجتمع من خطر المرجعية الأهوائية المضلِّلة، ففي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني. فقلت: (يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشرِّ من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ. قلت: وما دَخَنُه؟ قال: قومٌ يَهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: (نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها). قلت: يا رسول الله، صِفهم لنا؟

(*) رئيس مجلس إدارة وقف الإمام الشاطبيِّ للقرآن الكريم وعلومه، كاتب ومؤلف في قضايا التراث والمعاصرة.

قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1].

فقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى عاملٍ من أهم عوامل انحراف المجتمعات، ألا وهم دعاةٌ الضلال الذين وصفهم بأنهم دعاةٌ على أبواب جهنم، كما أنَّ من أهم عوامل سلامة المجتمعات من الانحراف العقدي والتشتت الفكري: الوقوف في وجه دعاة الضلال أولئك.

وقوله ﷺ: (دعاةٌ على أبواب جهنم) أي يدعون الناس إلى العمل بما يولج فيها. وهم لا يكونون كذلك إلا وهم على جَورٍ وباطلٍ، وعلى خلاف سنته عليه الصلاة والسلام. ولأنهم على ضلال، فلم يقل فيهم: تعرف منهم وتنكر، كما قال في الأوَّلين.

> **وقوف أهل الحق في وجه دعاة الضلال من أهم عوامل سلامة المجتمعات من الانحراف العقدي والتشتت الفكري**

أصناف دعاة الضلالة:

لعلَّ من أوائل المعنيين بهذا التعبير علماء السوء والمنافقون ومن يلبِّسون على الناس دينهم، فهم محسوبون من أمة الإسلام، بقرينة القيد المذكور في الحديث: (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا!). وجِلدة الشيء: ظاهره، وهي في الأصل غشاء البدن.

قال: (هُم من جلدَتنا)؛ يعني: من أبناء جنسنا، ومن قومنا وملَّتنا. (ويتكلمون بألسنتنا) أي: بلغتنا؛ يعني: لا نقدرُ أن نعرفَهُم بصورهم بل بسِيَرِهم، هم في الظاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون لنا، دعاة للشهوات مثيرون للشبهات.

* **فأما الفئة الأولى:** فهم الذين يدعون الناسَ إلى الجنة بأقوالهم، ولكن أفعالهم تأبى ذلك حيث تناقض ما يقولون ويُنظِّرون!

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون الناس إليها بأقوالهم، ويدعون إلى النار بأفعالهم! فكلَّما قالت أفواههم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدِلّاء؛ وفي الحقيقة قطَّاع الطرق»[2].

دعاة يعلنون الحرب على الإسلام باسم الإسلام، ويهدمون أركان وأصول وثوابت الدين باسم الدين! يصورون فسادهم وضلالهم في قالب الإصلاح! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]: «والمقصود: التحذير من علماء السوء، وعُبَّاد الضلال. كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبَهٌ من النصارى»[3].

فعلماء السوء طائفة تَعلَم الحق لكنها تلبسه بالباطل، ليتوافق مع أهواء السلاطين وسياساتهم المبدِّلة للدين، ليتوصلوا بذلك إلى حطام الدنيا، من مال، أو منصب، أو جاه، أو رئاسة، أو ليحفظوا ما هم فيه من متاع زائل.

قال عبد الله بن المبارك:

وَهَل أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ
وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها

> **لكل طاغية أبواق تنعق بما تعلم وبما لا تعلم، تشارك في عملية التضليل الفكري والإعلامي، تتهجَّم على ثوابت الدين باسم التسامح والوسطية؛ كل همّهم أن يصلوا بالمسلمين إلى حالةٍ من الإفلاس في عالم القِيَم**

* **وأما الفئة الثانية:** فهم أبواق الطواغيت، فإنَّ لكل طاغية أبواق تنعق بما تعلم وبما لا تعلم، يشاركون في عملية التضليل الفكري والإعلامي، هم أيضًا دعاة على أبواب جهنّم. يقول تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩- ١١٠].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٢) الفوائد، لابن القيم، ص (٦١).
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٣٨).

على جانبي الطريق: دعاة على أبواب جهنم

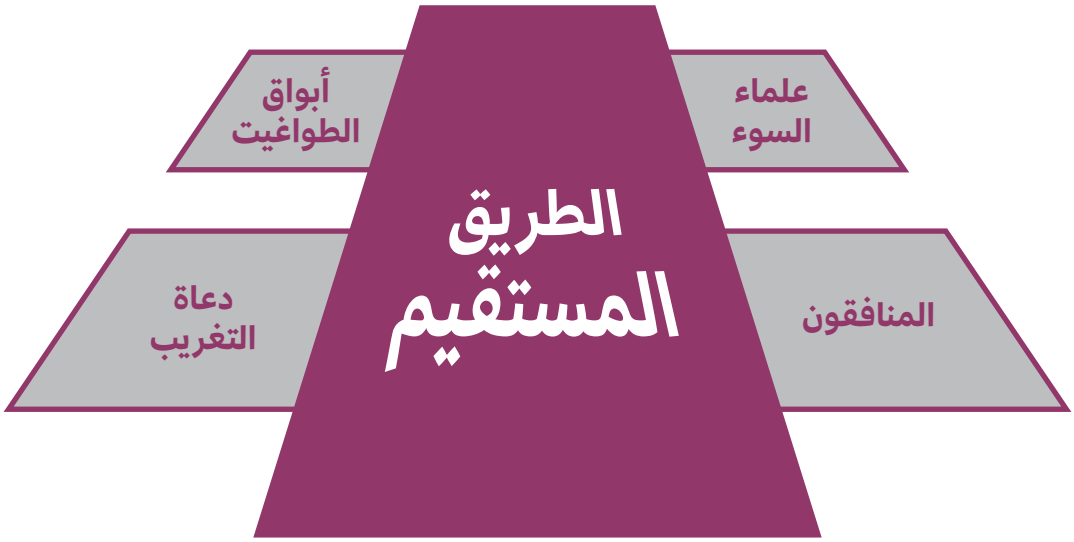

ويستحيل عند من عاش في أروقة الظلمة ودهاليز الشهوات، أن يحصل من كلامه الهدى، فما عندهم إلا لحم جمل غثٌّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى.

يعزفون على جراح المستضعفين من هذه الأمَّة تحت عباءة الوطنية؛ ويتهجَّمون على ثوابت الدين باسم التسامح والوسطية؛ وكان همُّ هؤلاء أن يصلوا بالمسلمين الذين هم بالأصل من أبناء جلدتهم، إلى حالة من الإفلاس في عالم القِيَم. شُغلهُم الشاغل التمرُّد على الثوابت، وهذا التمرُّد هو المقدَّس الأكبر لدى الحداثيين[1].

وكأن هؤلاء يبحثون عن الشهرة، إلى جانب بثِّ سمومهم. فما نال العديدون جوائز كبيرة، وشهرة عالمية، إلا لأنهم طعنوا في ثوابت الإسلام!

يمارسون الطعن في الثوابت، متأثرين بأساتذتهم من المستشرقين، أو المستغربين الجدد. تحت مسميَّات مزركشة، وعناوين مزيفة، من مثل التنوير والحداثة والتجديد!

* **وأما الفئة الثالثة:** فهم الذين يرون في النموذج الغربي مثالاً يحتذى، فحاولوا محاكاة العلمانية الأوروبية التي نظرت للدين على أنه يعيق حركة التقدم والنهوض، فسعوا إلى تنحية الشريعة الإسلامية والطعن فيها وفي أحكامها باسم التجديد أو التحديث، فتارة ينادون باستبعاد الشريعة عن حكم الدولة والمجتمع، إلا نصوصًا مجمَّدة في بعض الدساتير، أو قوانين مؤطرة بالأحوال الشخصية! وتارةً تجدهم مستعدين لاستيراد ترَّهات الغربيين وباطلهم وزيفهم في التعليم والإعلام لمسخ الأجيال الشابة، واستنساخ النظام الاقتصادي الغربي القائم على الربا.

«هؤلاء الدعاة اليوم، الذين يدعون إلى أنواع من الباطل كالقومية العربية، والاشتراكية والرأسمالية الغاشمة. وإلى الخلاعة والحرية المطلقة وأنواع الفساد. كلهم دعاة على أبواب جهنم، سواء علموا أم لم يعلموا. من أجابهم إلى باطلهم قذفوه في جهنم. ولا شك أن هذا الحديث الجليل من أعلام النبوة،

(١) تشكَّلت الحداثة في عالمنا العربيّ، بعد أن نمت وترعرعت في الغرب، ولم تتشكل على جذرٍ حداثيّ خاصٍّ بنا. وأصبح دعاة العصرنة كما قال ألبرت حوراني: «قنطرة للعلمانية عبرت عليها إلى العالم الإسلامي؛ لتحتلَّ المواقع واحدًا تلو الآخر». يراجع في هذا الشأن كتاب: تناقضات الحداثة في مصر، لمؤلفه أحمد زايد.

ودلائل صحة رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بالواقع قبل وقوعه، فوقع كما أخبر»[1].

هؤلاء اليوم، مهما تباينت أسماؤهم، أو اختلفت أساليبهم، أو تناءت ديارهم، فهم متفقون على فصل الأمة عن موروثها الحضاري، ويلبسون عليها دينها. هم بامتياز دعاة على أبواب جهنم.

المنافقون يطعنون في الدين، ويتلونون في كل ثوب، يظهرون في الليل حتى يضربوا ضربتهم، وينشطون في مواقع سوداء من تاريخ الأمة، ويصطادون في الماء العكر، وكلما شعروا بضعف الأمة أو ضعف الدعوة إلى الله؛ نشطوا من مواقعهم ومراصدهم بالمكر والكيد والحرب الإعلامية

* **وأما الفئة الرابعة:** فهم المنافقون: الذين يطعنون في الدين، ويتلونون في كل ثوب! إنهم خفافيش الدجى في كل زمان ومكان، يظهرون في الليل حتى يضربوا ضربتهم. قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

ينشط هؤلاء في مواقع سوداء من تاريخ الأمة، ويصطادون في الماء العكر، وكلما شعروا بضعف الأمة أو ضعف الدعوة إلى الله، نشط هؤلاء من مواقعهم ومراصدهم وأحيانًا من مسجد ضرارهم؛ بالمكر والكيد والحرب الإعلامية.

لكن أبناء الفئة المؤمنة لا يكترثون لأهل النفاق ويحقِّرون من شأنهم؛ لأنهم يعرفون مصيرهم ومآلهم مهما عظم البلاء بهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣]، خسروا الدنيا وخسروا الآخرة. خسروا قومهم فكانوا سدَنة للطغاة وأعداء للإسلام، وخسروا الآخرة وأصبحوا حطبًا لجهنم. هذا مآل من يقف ضدَّ دين الله، داعية على باب من أبواب جهنم، من أجل تجارة خاسرة، مارسوها بسبب ما نشؤوا عليه من النفاق.

وفي هذا العصر رأى المسلمون والعالم أجمع مصير الذين تعاملوا مع المحتل والعدو الخارجي، استُهلكوا كسلعة من السلع، ثم رُموا دون أي اعتبار، وهو تجسيدٌ حيٌّ للصورة التي أشارت إليها آية سورة المائدة.

ثوابت الإسلام في مرمى دعاة الضلالة:

وجّه دعاة الضلالة سهامهم مرارًا نحو السنَّة النبوية، المصدر الثاني للتشريع، من خلال الطعن بعدد من رواة الأحاديث، والتشكيك في العديد من مدوناتها، والطعن في المنظومة الأخلاقية التي فيها حصانة للمجتمع من التردي في مستنقع الرذيلة، من خلال التشكيك بفرضية الحجاب، ودعاوى بخس الإسلام لحقوق المرأة! والهجوم على التراث الإسلامي عمومًا، وتحميله جميع مآسي المسلمين وتخلفهم، وجعلوا من أدواتهم الدعوة إلى قراءة عصرية للإسلام، ودعوا صراحة إلى إلغاء فريضة الجهاد وإلغاء حدِّ الردَّة.

ويقود هؤلاء حراكًا قويًا ملحوظًا، يهدف إلى نسف الإسلام من جذوره، ومن برامجه اختزال الدين في معنى إنسانيٍّ صِرف، وكأنه لم يكن كذلك! ومن أوضح صور هذا الحراك النشط: الدعوة إلى ديانة جديدة تحت مسمَّى الديانة الإبراهيمية، يزينها ثوب قشيب خادع! نعتوه بالتسامح بين الأديان.

لا يرضى هؤلاء من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنهم. ولا يطيقون أن يكون له وجود خارج عن وجودهم. ونسوا أو تناسوا أن الإسلام دين الله، أُنزل ليبقى إلى آخر الزمن، والأمَّة المسلمة هي أمَّة منجبة منتجة. إنَّها كنانة الله التي لا تنفذ سهامها، ولا تخطىء مراميها.

إن ولع هذه الفئة بالهدم للقيم أصبح شنشنة معروفة. وحسبنا أنَّ نعتَهم في القرآن قد جاء جليًّا واضحًا، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

البشرية اليوم بحاجة إلى دعاةٍ يقودون الناس إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض، دعاة رُشدٍ وإصلاح من أصحاب الأيادي المتوضئة النظيفة، الذين يعتمدون الإسلام منهج حياتهم؛ ويفهمون أنَّ المسؤولية الملقاة على عاتقهم هي إزاحة الغبار والأباطيل والشبهات عن درب المسلمين

(١) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، لابن باز، ص (٢٦).

لماذا على أبواب جهنم؟

هؤلاء الدعاة إنما جعلوا على أبواب جهنم باعتبار مآل دعوتهم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]. فكأنهم كائنون على أبواب جهنم، داعين الناس إلى الدخول في ضيافتهم، أو لأن المباشِر بسبب شيء كأنه واقع به داخل فيه.

كم قطع هؤلاء على السالكين إلى الله طرقَ الهدى، وسلكوا بهم سبلَ الردى!! قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١-٤٢].

الحق أبلج:

من الضرورة بمكان، لآحاد الأمة ومجاميعها، تلمُّس هدي النبيِّ ﷺ الثابت. يتزامن هذا المطلب مع حاجة البشرية اليوم إلى دعاة رشدٍ وإصلاحٍ، يقودون الناس إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض، من أصحاب الأيادي المتوضئة النظيفة، الذين اعتمدوا الإسلام منهج حياتهم؛ فهموه فهمًا صحيحًا، وفهموا أنَّ المسؤولية الملقاة على عاتقهم هي إزاحة الغبار والأباطيل والشبهات عن قطرة الماء الصافية، وعن الجوهرة اللامعة، اللتين هَمَّ طائرٌ أن يلتقطهما، فحاورته كل واحدةٍ منهما قائلةً: «أريد أن أبقى حرّةً أرى الشمس، دعني أسبح في الملكوت، دعني أذكر ربي»؛ فلم يأبه لقولهما؛ والتقطهما ومضى! وما علم أن القطرة من الماء سواءٌ كانت في سحابةٍ أم على ورقة شجرٍ أم امتزجت بشوائب من الطين، فجوهرها واحدٌ لا يتغيَّر. كما أن الجوهرة سواءٌ كانت في نيزكها قبل سقوطه أم في وسط دخانٍ أم على رأس فتاة حسناء أم جلست متربعةً على قطعة مخملٍ، فجوهرها واحدٌ أيضًا لا يتغيَّر. فليعلم المرجفون تهافت شبهة باطلهم، أمام قيَم الحق التي تتبختر اتضاحًا، وليعدلوا عن شبهاتهم التي طالما تتضاءل افتضاحًا، والتي أطفأت ريحُها سِراجَ عقولهم؛ فلأن يكون الواحد من دعاة الإسلام جنديًا في صفوف الحقِّ، خيرٌ له من أن يكون قائدًا في صفوف الباطل.

وختامًا:

تجدر الإشارة إلى أن قريشًا عندما رأت أن قناة المسلمين قوية لا تلين لغامزٍ، ورأى الصحابة رضوان الله عليهم موقف الأعداء بجموعهم منه فداه أبي وأمي، إذ لم يتخلَّ عن مقومات الدعوة إلى الله وعن مستلزماتها، أخذ المسلمون يستلهمون منه أهمَّ معالم الثبات؛ فلم يتعجبوا بعد ذلك من سهام المخالفين، حين تُسدَّد إليهم عن قوس واحدة.

ومسلمو اليوم حلقةٌ ضمن سلسلةٍ طويلةٍ، لا يأبهون لمحاولات يائسة وبائسة من أعداء الإسلام، وممن يدورون في فلكهم من أبناء جلدتنا. فهم في سبيل الله ماضون، وبحبل مولاهم مستمسكون، وعلى طريق الحق ثابتون، بعزيمة إيمانية لا تلين، وبرصيدٍ ثابتٍ مقترنٍ بقوةٍ معنويةٍ وثقافيةٍ.

رسالية العلماء

أ. مؤمن لخضر (*)

لأهل العلم مكانة خاصة في شريعتنا الإسلامية؛ فهم ورثة الأنبياء المؤتمنون على دين الناس، وقد أُخذ عليهم الميثاق ليُبيننُّه ولا يكتمونه، وهم ضمانةٌ من ضمانات استقرار المجتمع المسلم؛ بما وُكل إليهم من واجبِ الصدع بالحق وجهادِ البيان، وأَطرِ السلطان على الحقِّ ومنعِهِ من الظلم، وأداءِ الرسالة التي عُهدت إليهم إلى يوم الدين.

مقدمة:

لا يماري أحد في أهمية العلم ومركزيته في دفع عجلة تجديد الدين وحياة الأمة، إذ لا يخفى على ذي لبٍّ سلطة العلماء وصدارتهم في التوجيه والتعليم والتزكية؛ «فمَجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبّاد وأعلى درجةً من الزهّاد، حياتُهم غنيمة وموتُهم مصيبة، يذكّرون الغافلَ ويعلّمون الجاهلَ، لا يُتوقع لهم بائقة ولا يُخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصّرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على مَن خالف بقولهم محجاج ... من أطاعهم رَشَدَ، ومن عصاهم عَنَدَ»[1]، فبهدايتهم تنصلح أحوال العباد وترشد عمارة البلاد، ما داموا يسدّون الثغرات ويتولّون بالحكمة والأناة الإجابةَ السديدةَ على مختلف النوازل وعويص المشكلات، وهم في ذلك وَرَثَةُ الرسل والأنبياء في تربية الأمة وسياستها.

وإنّنا ونحن ننظر إلى واقع أمتنا وما آلت إليه من نكسات وويلات نتيجة عقليات ونفسيات تتصدر المشهد اليوم، وقد فقدت ميزان الرشد وامتطت هلكة التبعيض والتسرّع، وباتت تفتي في الشأن العام بلا علم رصين ولا رويّة ولا تبصّر، نرى ضرورة بيان أوصاف العلماء الربانيين المؤهّلين لحمل رسالة الإسلام حملاً يليق بمقامها، ويوفي الأمة الخيرية حقها.

فضيلة العلم في الإسلام وشرف العلماء:

لا يُعرف دينٌ كالإسلام ولا كتابٌ كالقرآنحفل بالعلم وأشاد بالعلماء، وجعل طلبه فريضة عينية، ورفع منازل أهله، وأعلى مِن شأن وظيفة تعليمه، وشغل به رسلَه وأنبياءَه وأولياءَه، بل إنّ الله

(*) إجازة في الدراسات الإسلامية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، مدرس وواعظ، ومهتم بالقضايا التربوية والفكرية.

(١) أخلاق العلماء، للآجري، ص (٦-٧).

سبحانه وتعالى قد تفضّل على عباده بتعليمهم، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وفضل مخلوقاته بعضهم على بعض بالعلم، ومنه تفضيله نبيه آدم عليه السلام على ملائكته بالعلم الذي علمه قال جل جلاله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

إن من أعظم الآيات دلالة على شرف العلم ومنزلة العلماء ما ورد في سورة آل عمران؛ قال جل جلاله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: «فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنّى بالملائكة، وثلّث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفًا وفضلاً وجلاءً ونبلاً»[١]. «وقوله تعالى: ﴿وأولوا العلم﴾ خصوصيةٌ عظيمة للعلماء في هذا المقام، وبيان لفضل أهل العلم ومكانة العلماء»[٢].

> **لا يعد في ديوان العلماء إلا مَن حمله علمُه على الوفاء بتبعاتِ هذا العلم، وزكاة ما أخذ منه قيامًا برسالة العلم وشرف الانتساب إلى أهله العاملين به، تحمّلاً وتعليمًا وتخلّقًا وتبليغًا ودعوةً**

وقد وقف العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله مع الآية مليًّا، وقلّب فيها النظر، فاستخرج منها عشر درر نافعات في بيان شرف العلماء وعظيم مكانتهم وهي:

- **الأولى:** استشهادهم دون غيرهم من البشر.
- **الثانية:** اقتران شهادتهم بشهادته.
- **الثالثة:** اقترانها بشهادة ملائكته.
- **الرابعة:** أنّ في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإنّ الله لا يستشهد من خلقه إلا العُدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: (يحمل هذا العلم من كلّ خلف عُدولُه، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المُبطِلين وتأويلَ الجاهلين)[٣].
- **الخامسة:** أنّه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم.
- **السادسة:** أنّه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجلُّ شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفًا.
- **السابعة:** أنّه استشهد بهم على أجلّ مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيمُ القدْر إنّما يستشهد على الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتهم.
- **الثامنة:** أنّه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهُم بمنزلة أدلّته وآياته وبراهينه الدالّة على توحيده.
- **التاسعة:** أنّه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدلّ على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنّه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.
- **العاشرة:** أنّه سبحانه جعلهم مؤيدين لحقّه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدّوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به، فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وكل مَنْ ناله الهدى بشهادتهم وأقرّ بهذا الحقّ بسبب شهادتهم، فلهم من الأجر مثل أجره، وهذا فضل عظيم لا يدري قدْرَه إلا الله، وكذلك كلّ من شهد بها عن شهادتهم، فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا»[٤].

وهذا العلم الذي بانت مكانته، وجمل في الخلق طلابه وأهله، هو وسيلة عظمى واجبة التحصيل لمقصد أجل وأسمى، وهو: التعبد لله جل جلاله؛ قال الإمام المقاصدي الشاطبي رحمه الله: «روح العلم هو العمل... وذكر مالك أنّه بلغه عن

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٤/١-٥).
(٢) التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، للدكتور مأمون حموش (٢٨/٢).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩١١) والطبراني في مسند الشاميين (٥٩٩) بإسنادٍ مُرسَل.
(٤) تنقيح الإفادة المنتقى من مفتاح دار السعادة، لسليم الهلالي، ص (٥١-٥٢).

القاسم بن محمد قال: أدركت الناس وما يعجبهم القول، وإنّما يعجبهم العمل، والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى»[١].

والقول الفصل أنّه لا يعد في ديوان العلماء إلا مَن حمله علمه على الوفاء بتبعات علمه، وزكاة ما أخذ منه قيامًا برسالة العلم وشرف الانتساب إلى أهله العاملين به، تحمّلاً وتعليمًا وتخلّقًا وتبليغًا ودعوةً.

> **العلماء في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنصّ الكتاب**

رسالية العلماء:

إنّ العالم الذي ثبت في الشريعة فضلُه، وتضافرت النصوص على رفعة مكانته وسموّ مقامه، إنّما هو العالم الوارث الذي جاءت الإشارة إليه في قوله ﷺ: (وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر)[٢].

إنّهم العلماء الذين «يخلفُون الأنبياء على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين والغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين»[٣]. وهم العلماء الرساليون الذين يوقّعون عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ، وهم «من دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، والذين خُصّوا باستنباط الأحكام وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنصّ الكتاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]»[٤]. وهم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، يقول ابن العربي رحمه الله: «في قوله تعالى (ربانيين) وهو منسوب إلى الرب، .. وهو ها هنا عبارة عن الذي يربّي الناس بصغار العلم قبل كباره، وكأنّه يقتدي بالربّ سبحانه وتعالى في تيسير الأمور المجملة في العبد على مقدار بدنه من غذاء وبلاء»[٥]. فعلمه باعث له على العمل «الذي لا يخلّي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرهًا»[٦].

والعالِمية: «صفة كسبية في معرفة أحكام الشريعة، أصولها وفروعها، يكون المتحقق بها إمامًا في الدين تعليمًا وتزكية»[٧]. وقد تتبع الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله وصية الإمام الباجي لولديه المتعلّقة بالعلم وطلبه والتماس الإمامة فيه، فأرجع ماهية العالِـمية إلى ثلاثة أركان:

١. **الملكة الفقهية:** وهي «غاية مراحل الطلب، وزبدة مسيرة العلم، هي الصفة الكسبية التي يكون بها العالم فقيهًا في أحكام الشريعة أصولها وفروعها، وإنما هي: خبرة منهجية في معالجة النصوص الشرعية فهمًا واستنباطًا، وتحقيق مناطاتها تنزيلاً»[٨]. فالعالم الحقّ مَن «يتحقّق بالمعاني الشرعية منزّلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصدّه التبحّر في الاستبصار بطرف عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر. فلا هو يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على الآخر. ثم يلتفت مع

(١) تنقيح الإفادة المنتقى من مفتاح دار السعادة، لسليم الهلالي، ص(٧٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢).
(٣) تنقيح الإفادة، ص (٨٨).
(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية (٨/١).
(٥) أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، (٣٦٥/١).
(٦) الموافقات، للشاطبي (٣٦/١).
(٧) مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، للدكتور فريد الأنصاري، ص (٦٢).
(٨) المرجع نفسه، ص (٦٣).

أركان العالِمية

ذلك إلى تنزل ما تلخَّص له على ما يليق في أفعال المكلفين،... وهذه الرتبة لا خلاف في صحّة الاجتهاد من صاحبها»[١].

٢. **الربانية الإيمانية:** وهي مقاربة الكمال في مسلك التخلّق بأخلاق القرآن، والتحقّق من صفتي التقوى والورع، من أجل تحصيل العلم بالله والتعرف إليه تعالى. ولا يكون له ذلك إلا بما حصل من مكاسب الأعمال، وبما ترقّى في مدارج التزكية الإيمانية، ومجاهدة النفس عبر منازل التعبّد ومراتب الإخلاص حتى يخرج خروجًا كليًّا عن داعية هواه، ويكون عبدًا خالصًا لله، والخلوص الكامل لله هو تمام العلم بالله»[٢].

٣. **القيادة التربوية والاجتماعية:** وهي وظيفة العالم الإصلاحية، وحق العلم المتعلّق بذمته، وهي الانتصاب لتربية الخلق بما آتاه الله من علم وصلاح في نفسه، وبما اكتسبه في طريق ذلك من بصيرة قلبية وخبرة دعوية وصناعة تربوية .. يراعي المناسبات الزمانية والمكانية والحالية في تنزيل الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية؛ ممّا يؤهله للإمامة العلمية والقيادة التربوية، قديرًا على توجيه المجتمع بعلمه وخلقه واستيعاب سائر الناس»[٣].

> **الرسالية في فعل العلماء مسؤولية هادفة أساسها العلم ولُحمتها الأخلاق ومحرّك رحاها الاهتمام المبصر بمشكلات الأمّة، والوقوف الواعي على أهم الثغرات فيها، والترسيخ العميق لهويتها، وتقوية كينونتها، بما يدفع عنها غائلة الجهل والظلم والخضوع**

من مهام العالم الرسالي:

إنّ الرسالية في فعل العلماء مسؤولية هادفة أساسها العلم ولُحمتها الأخلاق ومحرّك رحاها الاهتمام المبصر بمشكلات الأمّة، والوقوف الواعي على أهم الثغرات فيها، والترسيخ العميق لهويتها، وتقوية كينونتها، بما يدفع عنها غائلة الجهل والظلم والخضوع.

لذلك كان من أجلّ مهام العلماء الرساليين:

١. **بيان الحقّ والنهوض بتبليغه مع ما يستدعيه ذلك من البلاغ المبين،** القائم على الرفق والحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والتماس العذر للمخالف، والتعامل بنفسية الداعي المشفق، والطبيب المداوي، لا القاضي الحاكم الذي يبحث عن الثغرات، إذ المعنى الحسن لا ينفذ إلى القلوب

(١) الموافقات، للشاطبي (٤/١٣١-١٣٢).
(٢) مفهوم العالمية، فريد الأنصاري، ص (٦٥-٦٦).
(٣) المرجع نفسه، ص (٧٥-٧٦).

إلّا إذا حُمل في وعاء حسن جميل يغري بالإقبال؛ «فالذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطًا بأدب العربية في شتى أعصارها إنّما يحاول عبثًا، وأنّى لرجل محروم من حاسّة البلاغة أن يخدم دينًا كتابُه معجزةٌ بيانيةٌ، ورسولُه إمامُ الحكمةِ وفصل الخطاب!!»[١].

علمًا أنّ بيان الحقّ والصدع به زمن الفتنة وأمام السلطان الجائر له تبعات لا يتحمّلها إلّا العلماء الذين باعوا أنفسهم لله، يجهرون بالحقّ ولا يخافون فيه لومة لائم، لا تغريهم مفاتن الدنيا، ولا توقفهم مكايد المتهافتين من عوام الناس وخواصهم، نصب أعينهم المنزلة العظيمة التي بشّر بها رسول الله ﷺ: (سَيِّدُ الشُّهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه فقتله)[٢].

فلا يُحسب في ديوان العلماء الرساليين مَن شغله علمه عن عمله، وشذّ عمله عن خُلُقه، ولا يكون عالمًا رساليًا حتى يكون حاله ناطقًا عنه، وقد لبس الصدق للحق، وتزيّا بحسن الخلق للخلق، وقد أوصى الخطيب البغدادي العلماء بقوله: «فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما دمت مقصّرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما وإنْ قلّ نصيبك منهما، وما شيء أضعف من عالمٍ ترك الناسُ علمَه لفسادِ طريقته، وجاهلٍ أخذ الناسُ بجهله لنظرهم إلى عبادته»[٣].

٢. **تجديد معالم الدين وسياسة الناس بمنهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام،** فالعالم الرسالي مهموم بما يلم بأمته من مشكلات، وما يطرأ بواقعها من انحرافات، فهو يسعى إلى إحياء معالم الدين، وتجديد معاني رسالة سيد المرسلين، يشارك في تجديد الفكر، وترشيد الشأن العام، يفرغ جهده في التماس الأجوبة السديدة الشرعية المناسبة لاحتياجات الواقع، يوائم بين فقه الواجب وفقه الواقع، وبين توجيهات الوحيين ومقاصدهما، ومعطيات العلم وهداياته في الأنفس والآفاق، فهو لا يستغني عن الجمع بين الكونين والنظر الحصيف في الآيتين، الآية المتلوة في الكتاب، والآية المجلوة في الكون المنظور.

والأمّة اليوم بحاجة إلى علماء يقودونها -ولاسيما في هذا الوقت الذي كثر فيه الاختلاف والاضطراب- يجمعون كلمتها ويوحّدون صفها، ويبنون أخوّتها الإيمانية، ويربّونها على التضامن والتآزر والاعتصام بحبل الله، «وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي تتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف»[٤]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

٣. **السعي الحثيث إلى توريث علم النبوة للأجيال،** وفاءً بعهد التبليغ ومهمّة التحصين للأمة من الفتن، حتى يستمر العطاء ويتجدّد جيلاً بعد جيل، ويتحقّق الوعد الحق: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[٥]. يقول الإمام النووي رحمه الله: «وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأنّ الله تعالى يوفق له في كل عصر خَلَفًا من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف وما بعده فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كلّ عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهذا من أعلام النبوة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم، فإنّ الحديث إنّما هو إخبار بأنّ العدول يحملونه، لا أنّ غيرهم لا يعرف شيئًا منه، والله أعلم»[٦].

ويبقى نجاح العالم الرسالي مرهونًا بسلامة قصده وحسن طويته، ودوام جدّه، وعلوّ همّته، ومصاحبته الصادقة للعلم والعمل والخلق، جامعًا بين المدارسة والممارسة، وقائلاً بالحقّ لا يخشى في الله لومة لائم، «فأولئك الأقلّون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع عن حججه، حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم»[٧].

(١) مع الله، لمحمد الغزالي، ص (١٨٠).
(٢) أخرجه الحاكم (٤٨٨٤).
(٣) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ص (١٤).
(٤) تفسير القرطبي (١٠٥/٤).
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩١١) والطبراني في مسند الشاميين (٥٩٩) بإسنادٍ مُرسَل.
(٦) تهذيب الأسماء واللغات، للإمام النووي، (١٧/١).
(٧) تنقيح الإفادة، ص (١٢٩).

أبرز مهام العالم الرسالي

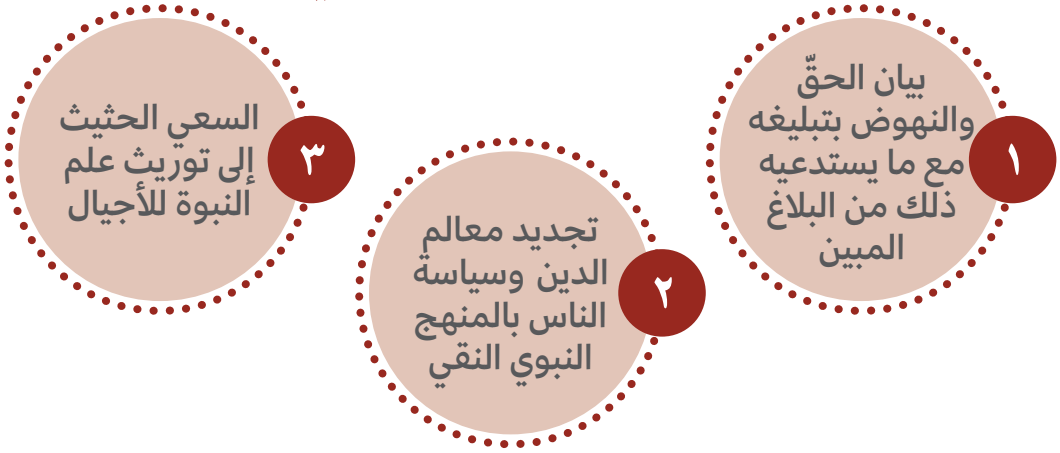

نجاح العالم الرسالي مرهونٌ بسلامة قصده وحُسن طويته، ودوام جدّه، وعلوّ همّته، ومُصاحبته الصادقة للعلم والعمل والخلق، جامعًا بين المدارسة والممارسة، وقائلاً بالحقّ لا يخشى في الله لومة لائم

خاتمة:

لا يسع أمّة اقرأ وأمّة الكتاب إلّا العودة الصادقة إلى حاضنة العلم ورسالته السامية الباقية، كما يؤكّد ذلك العالم المغربي المقاصدي أحمد الريسوني بقوله: ««فإذا لم تكن -فعلاً- خاصيتُنا علمية، ولم تكن رسالتُنا علمية، ولم تكن نهضتُنا علمية، ولم تكن حضارتُنا علمية، فقد حِدْنا عن الطريق الصحيح. فلا بدَّ إذًا مما ليس منه بُد، وهو اتخاذ العلم والعمل العلمي إمامًا، واتخاذ الكتاب إمامًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

فسنّة الله إنزال الكتب، وسنة الأنبياء تبليغ الكتب وإمامة الناس بالكتب، ووظيفة العلماء والمفكرين ترسيخ الإمامة والقيادة للكتاب الإمام، ثم ترسيخ ثقافة الكتاب، وإمامة الكتاب، والعلم بصفة عامة.

وظيفة العلماء والمفكرين إنتاج الكتب القيادية الهادفة لمختلف الأزمنة والأجيال بحسب المشكلات والحاجات والإمكانات القائمة في كل زمان»[١].

إنّ أمّتنا الإسلامية اليوم تُحارَب بقسوة شديدة ومكر خبيث في مراحل التربية، وساحات القضاء، ومجال الأسرة والمرأة، واللسان العربي، فضلاً عن حرب الكفاءات، وتسلّط الاستبداد السياسي، والغزو الفكري، مما يدعو إلى الزيادة في فري المشكلات، وتعميق المطارحة في تعرف الأولويات، والتماس الحلول المبنية على فقه المقاصد ومراعاة المآلات، وخلوص الغاية ضمن عمل اجتهادي اجتماعي، يجمع بين علماء الشريعة الأصلاء المخلصين، وأهل التخصصات المحسنين، «على أنّه لا بد من إبعاد العقول الملتاثة عن علم الكتاب والسنّة، ولا بد من تنقية منابعنا الثقافية حتى تروج أقوال الأئمة العباقرة، وأهل الذكر، وتستخفي أقوال المعلولين، وأذناب السلطان، وأشباه العوام»[٢].

إنّ أمانة الوراثة عن النبي ﷺ في عمقها الرسالي، ومادتها العلمية، ورحمها الربانية، قد جمعت وظائف البعثة المحمدية الثلاث، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

(١) أبحاث في الميدان، د.أحمد الريسوني، ص (١٣٨-١٣٩).
(٢) علل وأدوية، لمحمد الغزالي، ص (٢٥٥).

الإكثار من تلاوة القرآن أم تدبُّره؟ نظرة شرعية تربوية

د.عمر النشيواتي (*)

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم وأمر بترتيله وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، كما حثَّ على تدبره والتفكر في معانيه، وعاب على من يغفل عن ذلك. فما هي منزلة تدبُّر القرآن الكريم؟ وإلى أي مدى تصحُّ قراءة القرآن الكريم دون النظر في معانيه وحِكمه وهداياته؟

مدخل:

القرآن الكريم هو الرحمة المهداة من رب العالمين لتستضيء البشرية بنوره وهداه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهو صلة العبد بربه ليلاً ونهارًا، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ۝٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩]. وهو المنبع الصافي الذي يستقي منه المسلم أحكام دينه، ويتعلم آدابه وأخلاقه؛ لذا فإنه لا غنى له عن قراءته وتلاوته آناء الليل والنهار، فقراءة القرآن عبادة مطلوبة من المسلم على كل حال.

فمن كان مقصرًا في قراءة القرآن أو معرضًا عنه: فلا شك أن الثابت في حقه أن يُقبِل عليه ويقرأه، ويجعل له وردًا يوميًا لا يتركه حتى لا يكون ممن هجر القرآن.

أما من كان قارئًا للقرآن فقد تعرض له مسألة تتباين فيها الآراء وهي: هل الأفضَل الإكثار من التلاوة أم الاهتمام بالتدبر والتأمل لمعاني القرآن وهداياته ومقاصده؟

فإن بعض قارئي القرآن ربما واجهوا قدرًا من التعارض بين الأمرين، قل هذا أو كثر، فيترددون بين أن يزيدوا من قراءة الحروف أم يزدادوا من التأمل والتدبر؟ والناس ما بين متطلع إلى تحصيل الأجر على تلاوته لكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، أو حريص على تدبره والعيش مع آياته، وبين من يهذّ قراءته هذًّا ولا يهتم إلا ببلوغ آخر السورة أو الجزء! وفي هذه المقالة تقريب للمسألة[1].

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) يفرق أهل العلم بين التفسير والتدبر والاستنباط: فالتفسير يتعلق بالمعنى، والتدبر يتعلق بالهدايات والمقاصد وأثرها على القارئ، ولا يحصل التدبر الصحيح إلا بفهم صحيح للآية وهو مراد هذه المقالة، أما الاستنباط فهو درجة فوق التدبر وليست مقصودة بالدرجة الأولى من المقالة.

من كان مقصرًا في قراءة القرآن أو معرضًا عنه: فالثابت في حقه أن يُقبِل عليه ويقرأه، ويجعل له وردًا يوميًا لا يتركه؛ حتى لا يكون ممن هجر القرآن

بين يدي الموضوع أدعو القارئ إلى تأمل الأمور التالية:

* **إحسان العمل لا كثرته:** العبرة بإحسان العمل لا بكثرته حيث قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ولم يقل أيكم أكثر عملاً؛ وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحسَنُوا الحُسنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرهَقُ وُجوهَهُم قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصحابُ الجَنَّةِ هُم فيها خالِدونَ﴾ [يونس: ٢٦] ولم يقل للذين أكثروا ... وقال: ﴿مَن عَمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ [النحل: ٩٧].

* **إنما السبق بالقلوب:** إن محل نظر الرب هو القلب وصلاحه وليس إلى الصور والهيئات، قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ)[١]. والسبق إنما يكون بالقلوب، قال بكر بن عبد الله المزني: «ما فَضَلَ أبو بكر النَّاسَ بكثرة صلاةٍ ولا بكثرة صيام، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه»[٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكلماتُ والعباداتُ وإن اشتَرَكَتْ في الصُّورَةِ الظاهِرةِ فَإنها تَتَفاوَتُ بِحَسَبِ أحوالِ القلوبِ تَفاوُتًا عَظِيمًا، ومِثْلُ هَذا الحَدِيثِ الذي في حَدِيثِ: المَرْأةِ البَغِيِّ التي سَقَتْ كَلبًا فَغَفَرَ اللَّهُ لَها؛ فَهذا لِما حَصَلَ في قَلبِها مِن حُسْنِ النِّيَّةِ والرَّحْمَةِ إذْ ذاكَ»[٣].

* **مقصد نزول القرآن:** القرآن كتاب هداية وذكرى ورحمة ﴿وَلَقَد جِئناهُم بِكِتابٍ فَصَّلناهُ عَلى عِلمٍ هُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ﴾ [يونس: ٥٧] وعن أنس ﷺ قال: «ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية والعلم بالدراية»[٤]، فكيف ينال تلك الهدايات والرحمات من لا ينظر إلا إلى عدد الحروف والكلمات والأجزاء؟

* **الأمر بالتدبر:** دعانا القرآن مرارًا إلى تدبره والتفقه فيه للعمل بما فيه، قال سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم عَلى قُلوبٍ أَقفالُها﴾ [محمد: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿الَّذينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ يَتلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤمِنونَ بِهِ وَمَن يَكفُر بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾ [البقرة: ١٢١] فما هو حق تلاوته؟ قال ابن مسعود ﷺ: «والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه»[٥].

* **الدعاء المستجاب:** القرآن كتاب مناجاة ودعاء وسؤال، والله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاهٍ، قال ﷺ: «ادْعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابةِ، واعلَموا أنَّ اللهَ تعالَى لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ)[٦]، فكم يُفَوِّتُ صاحبُ القلب اللاهي على نفسه من تلك الدعوات المباركات؟

* **إعجاز القرآن وبيانه:** القرآن كتاب معجز في لفظه ومعناه وتشريعاته وتحدى الله به الإنس والجن؟ ﴿قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلى أَن يَأتوا بِمِثلِ هٰذَا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ولا يستوي الذي يفقه ألفاظ القرآن والذي لا يفقهها، فضلاً عن أن يستوي الفقيه بآيات الله والعامي؟ أو يستوي الراسخ في العلم والمستنبط ومَن هو دونه؟ فكيف تتكشف أسرار القرآن؟ وكيف لهذا التفاضل أن يظهر بغير تعقل وتفهم وتدبر لآيات الله؟

«ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية والعلم بالدراية»
أنس بن مالك ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) ذكره الحكيم الترمذي في: نوادر الأصول (٥٥/١)، وبكر بن عبدالله المزني من التابعين.
(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧٣٥/١٠).
(٤) ذكره الديلمي في: الفردوس بمأثور الخطاب (٣٩٨/٣).
(٥) أخرجه الطبري (٥٦٧/٢).
(٦) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩).

إذا تقرر هذا كله، فما الذي يجعل هذه المسألة محل خلاف ونقاش ويكثر حولها الجدل؟ ويكثر السائلون عنها ويتردد المسؤولون عنها في تبيان القول الفصل فيها؟

مفاتيح بلاغة القرآن الكريم وأسرار إعجازه لا تنكشف إلا بالتدبُّر وإعمال العقل والقلب في فهم كلام الله، وبغير هذا التدبُّر لا يظهر التفاضل بين العالم ومن دونه من الناس

القول بأفضلية الإكثار من القراءة:

عند النظر في قول من يرى بأن مجرد الإكثار من التلاوة هو الأفضل تحصيلاً للأجر خاصة في مواسم الطاعة كرمضان ونحوه فإننا سنجد أن عمدة القول فيه هو الحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود ﷺ مرفوعًا: (مَن قرأ حرفًا من كتابِ اللهِ فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ)[1]. ويستدل بعضهم كذلك بفعل عثمان بن عفان ﷺ أنه قرأ القرآن في ركعة، وبقول امْرَأَةُ عُثْمانَ حِينَ قُتِلَ: «لقد قَتَلْتُمُوهُ وإنهُ لَيُحْيِي الليلَ كُلَّهُ بالقرآنِ في رَكعَةٍ»[2]، ويذكرون آثارًا عن بعض السلف في تحزيب القرآن والإكثار من قراءته؛ إلا أنه يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

» نظرة مقاصدية:

مع التأكيد على عظم هذا الفضل الثابت لتلاوة كتاب الله وأهمية التنافس في تحصيله، إلا أنه ينبغي أن ننظر لهذا الفضل نظرة مقاصدية؛ فترتيب هذا الأجر العظيـــم على كل حرف منه إنما جُعل محفزًا ومرغّبًا في تلاوة كتاب الله وليس مقصودًا أوّليًا والله أعلم، ومن هنا بدأ شيء من الخلل بجعل الأجر غاية نهائية، والمحفز هدفًا لذاته، قال بعض السلف: «نزل القرآنُ ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً»، وإن من يرجو من التلاوة حصول الأجر له فحسب! كمن يخرج مجاهدًا في سبيل الله يتطلب من خروجه أن يُقتل في سبيل الله ليحصل له أجر الشهيد! مستشهدًا بحديث عبادة بن الصامت: (للشهيدِ عند اللهِ ستُّ خصال)[3] وذَهل عن أن الجهاد إنما شرع لحفظ الدين -الذي يتطلب حفظ الأرواح لا إزهاقها- ليتحقق النصر والتمكين، وإنما جُعل الأجر الوارد -والله أعلم- حاديًا ومحفزًا لمن خرج في سبيل الله أنه ينال إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة، فمن جعل الوسيلة والمحفز هدفًا فقد فوت على نفسه الكثير!

» الجمع بين الإكثار والتدبر:

عند استحضار عدد من نماذج قراءة السلف للقرآن وتحزيبه، وعملهم بأحكامه وتشريعاته فإنه سيظهر لنا جليًا أن أعلى المراتب وأولاها: الجمع بين ما ثبت من نصوص الكتاب والسنة وسيرة النبي ﷺ القولية والفعلية في القراءة والتدبر، فإعمال النصوص أولى من إهمالها؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وأن النبي ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطولَ من أطولَ منها[4]، وأنه قام بآية حتى الصباح[5]، وعن قتادة قال: سألت أنسًا عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يَمُدُّ مَدًّا»[6]. إلى غيرها من النصوص المشتهرة في هدي النبي ﷺ وسلف الأمة في قراءتهم للقرآن، والتي ينبغي ألا ننظر إلى نصف الصورة عنهم في تحزيبهم لكتاب الله وكثرة قراءتهم ثم لا نهتدي بهديهم في كيفية أدائهم لأورادهم وأحزابهم؟

الإكثار من التلاوة ليس بالضرورة تلاوة عدد كبير من الآيات والسور، أو ختم القرآن الكريم في وقت قصير، فمن صوره التي كان يقوم بها النبي ﷺ: إطالة قراءة السورة الواحدة، وترديد آياتها وتكرارها من أجل تدبر أعمق لمعانيها وهداياتها

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٦٧٣).
(٣) أخرجه أحمد (١٧١٨٢).
(٤) أخرجه مسلم (٧٣٣).
(٥) أخرجه ابن ماجه (١٣٥٠).
(٦) أخرجه البخاري (٥٠٤٥).

» **من صور هجر القرآن: قراءته دون فهم أو تدبر:**

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] قال ابن كثير: «تَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هُجْرَانِهِ»[١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه»[٢].

وجاء في صفة الخوارج أنهم (يقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوزُ حناجرَهم)[٣]، فما ورد من التحذير والنهي عن تلاوة القرآن بلا فهم أو تدبر يكفي في التزهيد في هذا المسلك وهو صورة من صور هجره التي يجب أن لا نقع فيها.

إن تتبع المدرسة التي تقدم الاهتمام بالكمِّ في الصلاة والذكر والأوراد وغيرها على حساب المضمون والكيف سيلحظ أنه خطأ قديم عالجه النبي ﷺ في قصة «النفر الثلاثة» الذين تَقالُّوا عمل النبي ﷺ فقال لهم: (ما بالُ أقوامٍ قالُوا كذا وَكذا؟ لكِنِّي أصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتزوجُ النساءَ، فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فلَيسَ مِنِّي)[٤]، إلا أنها ازدادت تضخمًا واتساعًا مع مرور الزمن فأصبحت في الخلف أكثر منها في المتقدّمين، مما يستدعي مراجعة وتصحيحًا لطرق التعبد لتعود كما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

تساؤلات وإجابات:

* **إذا قيل:** فهمتُ القرآن وتدبرته مرة ومرات، فما الداعي لإعادة تدبره؟ أليس الأولى الاستزادة من الحسنات بالإكثار من التلاوة؟

تكرار تلاوة القرآن الكريم وتدبره يثمر مراجعة العلم والتفسير والفوائد وضبطها وتذكير النفس بها، فالقرآن منهج حياة يواجه به معتركها ووقائعها، وليس مجرد معلومات نظرية لا تمتّ للواقع بصلة!

(١) تفسير ابن كثير (١٠٨/٦).
(٢) تفسير الطبري (٢٥٩/٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) واللفظ له.

فيقال: إن التأكيد على المعاني وترسيخها وتشبع القلب بحقائق القرآن ومعانيه وتربية القلب والفكر والجوارح بالقرآن هو مقصد ظاهر في كتاب الله، وإلا فما الغاية من تكرار الآيات الدالة على توحيد الله وصفات الله وأسمائه ومشاهد الآخرة والبعث والحساب والجزاء والجنة والنار وقصص الأنبياء والصالحين، والمفسدين وأعداء الرسل والمصلحين؟! ألا يكفي أن تذكر مرة واحدة إن كان المراد هو مجرد العلم بها، المعرفة العقلية المجردة؟

ثم إنه يحصل بهذا التكرار مراجعة للعلم والتفسير والفوائد وضبطها وتذكير النفس بها، فالقرآن منهج حياة يواجه معتركها ووقائعها وليس هو مجرد معلومات نظرية لا تمت للواقع بصلة!

كما أن تكرار التدبر والتأمل طريقة مهمة لإضافة معان جديدة قد لا تتحصل إلا لمن أعاد النظر والتأمل واجتهد في ذلك وُسعه، وفي كل مرة يعيد المتأمل النظر في آيات كتاب الله يتكشّف له الجديد من المعاني، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (...، وهو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماءُ، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبُه)[1].

* **فإن قيل:** لنكن واقعيين! فمن الذي يستطيع أن يتلو القرآن لساعات طويلة وهو متدبر ومتأمل لما فيه، فإن النفوس تمل ولا تقوى على مثل هذا، خاصة على من ألزم نفسه بورد طويل من القرآن؟

قيل: المسألة هنا ليست خيارًا بين القراءة مع التدبر أو عدم القراءة، بل هي مراتب ودرجات، ويحرص المسلم على الأكمل والأفضل بحسب وقته وأحواله.

فالأكمل: أن يقرأ مع تدبر وفهم، ولو كان بضع آيات، فقد كان الصحابة ﷺ يقرؤون بضع آيات لا يتجاوزونها حتى يفهموها ويعملوا بما فيها.

> **المسلم ليس مخيرًا بين القراءة مع التدبُّر أو عدم القراءة! بل هي مراتب ودرجات يحرص على الأكمل والأفضل بحسب وقته وأحواله. فالأكمل: أن يقرأ مع تدبُّر وفهم**

ومثلها في الرتبة: أن يكون على حال يصعب فيه التدبر وإعمال الذهن، كانتظار عمل، أو أثناء انتقال في طريق، ونحو ذلك: فتكون القراءة أكمل من عدم القراءة.

ويليه في المرتبة الاقتصار على القراءة، لا سيَّما عند ضعف السير وخشية ضياع الورد؛ بأن نثبُت على الورد ولا نهمله ونجاهد أنفسها على مراعاة المضمون ما استطعنا، مع استحضار أنها مرتبة دون الكمال المنشود!.

ويُستأنس هنا بقول ابن القيم رحمه الله: «اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة، أيهما أفضل؟ على قولين..» إلى أن قال: «والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا: فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًا. والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة!»[2]. فمن فاتته الجواهر الثمينة فلا يفوت على نفسه الإكثار من الحسنات.

* **فإن قيل:** أخشى من الفهم الخاطئ لمعاني القرآن إن أنا تدبرته.. فأنا لست مفسرًا أو مجتهدًا، **فيقال:** إن الله حين أمرنا بتدبر آيات كتابه بقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فإنه سبحانه لم يأمرنا إلا بما نُطيق، فينبغي على المرء أن يجتهد وسعه في ذلك بحسب حاله:

فإن كان ممن أعطاه الله علمًا يُمَكِّنُه من النظر في الآيات ومعانيها فليتدبر ما يعلم صحة معناه وهو كثير، يجتهد وسعه في تحقيق كل ما يعينه على فهمه وتدبره من تعلم اللغة العربية وأساليبها والتفقه في الدين، وفي تعلم بعض قواعد النظر والاستدلال، ويستعين الحريص بمطالعة كتب اللغة والتفسير فقد تيسرت وأصبحت متاحة لمن بحث عنها، عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[3]، وقال الشافعي: «ليس

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦).
(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣٢٨/١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٨٥).

مراتب تلاوة القرآن وتدبره

بعد أداء الفرائض شيءٌ أفضل من طلب العلم»[1]، ومن يرد الله به خيرًا يفَقِّهْهُ في الدين.

ومن لم يكن من أهل النظر فليستعن بجهود أهل التخصص في ذلك من مواد مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وقد أصبحت في هذا الزمن متوفرة بكثرة، وليحذر من الخوض في معاني كلام الله تعالى دون علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال ابن القيم: «﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا، فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم»[2].

> **«ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا: فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًا. والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة»**
>
> ابن القيم رحمه الله

وختامًا:

إنَّ مجلس تلاوة كتاب الله هو مجلس هداية ومناجاة وذكر وموعظة وفقه، كما أنه مجلس علم نتعرّف فيه على الله تعالى وصفاته لنوقن به وبالدار الآخرة والجزاء والحساب، وهو مجلس استشفاء ومراجعة للنفس ومحاسبة لها ونقد للذات، وهو كذلك حداء يحدو بنا للسير إلى الله والدار الآخرة، كما يحصل به من الحسنات والأجور العظيمة على كل حرف منه، فلنحرص على تحصيل تلك المنافع كلها وذلك من فضل الله الواسع العظيم الذي اختص به أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.. قال ابن القيم: «وأهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم»[3].

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي (١٣٨/٢).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣٧٨/١).
(٣) زاد المعاد، لابن القيم (٣٢٧/١).

العمل التطوعي في ميزان القرآن والسنة

د. مصطفى بوهبوه (*)

أنزل الله تعالى الإسلام دين رحمة وتعاون، وحثّ عباده على التسابق إلى مغفرته ورضوانه فشرع لهم بذلك أبوابًا للمسابقة إلى الخير، ومن أهمّها العمل التطوعي، مبدأ إسلاميًا أصيلاً. ويأتي هذا المقال للإسهام في الكشف عن هذا المبدأ، وبيان أهم ضوابطه ومحدّداته، مبرزًا بعض المعيقات في طريق العمل التطوعي، وبعض السبل لتطويره والمضي به نحو الأفضل في وقتنا المعاصر.

المقصود بالعمل التطوعي:

التطوع لغة: مشتقٌّ من الطوَّع، وهو نَقيض الكُره. يقال طاعه ويطوعه وطاوعه[1]، وفي التنزيل قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

التطوع في الاصطلاح: هو ما تبرّع به الشخص من أعمال الخير من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه[2].

وصار مصطلح التطوع إذا طرح تتبادر إلى الذهن معانٍ من قَبيل العمل الإغاثي والإنساني والخيري، وهذا يعني أنّه صار يتّسع ليشمل كل جهدٍ -مالي أو جسدي أو فكري- يبذله الشخص اختيارًا بكامل إرادته، بهدف جلب المصالح للغير أو درء المفاسد عنه، دون انتظار أجر مادي أو معنوي مقابل جهده المبذول.

ضوابط العمل التطوعي:

إنّ قبول التطوع أو رده في ظلّ الشريعة الإسلامية رهين بمجموعة من الضوابط التي لا يصدق على العمل اسم التطوع من الناحية الشرعية إلا بتوفرها، ومن هذه الضوابط يلي:

١. **إخلاص النية:** فيشترط فيمن يقوم بالعمل التطوعي أن يكون مخلصًا في عمله حتى يُكتب أجره عند الله؛ فلا ينوي به الحصول على منصب أو مكافأة أو مكانة اجتماعية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، قال ابن القيم رحمه الله: «فأمّا

(*) حاصل على الدكتوراه في الفقه والأصول - المغرب، وللكاتب عدة مواد في الموضوع، منها كتاب "العمل الخيري التطوعي أصوله وأبعاده".

(١) لسان العرب، لابن منظور (٦٢٥/٤).

(٢) لسان العرب (٦٢٦/٤).

النيّة فهي رأس الأمر وعموده، وأساسه وأصله الذي عليه يُبنى، فإنّها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يبنى عليها، ويصحّ بصحّتها، ويفسد بفسادها، وبها يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة»[١].

٢. **الإرادة الحرة:** بأن يكون العمل صادرًا عن طيب نفس لا يخالجه تردّد؛ لأنّها من المعروف والسّخاء[٢]، فلا يجوز الإجبار على القيام بعمل وعدّه تطوعًا، كعدم إعطائهم أجرة، أو إضافة أعمال أو ساعات عمل للموظفين دون رضاهم؛ لأنّ الأصل في أموال الناس وجهودهم احترامها، فلا يحلّ لأحد مالِ غيره أو جهده إلا عن طيب نفس منه، مصداقًا لقول النبي ﷺ: (ولا يحلُّ لامرئ من مالِ أخيه إلا ما طابت به نفسه)[٣].

٣. **طيب الأصل المتبرع به:** فالله تعالى طيّب لا يقبل إلا الطيب، فسواء أكان الأصل المتبرّع به مالاً أو عينًا أو جهدًا، فيجب أن يكون حلالاً طيبًا غير خبيث، والمجال المبذول فيه الجهد حلال وجائز قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]. فالآية تُبيّن أنّ الإنفاق يجب أن يكون خيرًا، ولا يكون خيرًا إن كان خبيثًا: «فقوله تعالى: (من خير) إشارة إلى أن ما يُنفق يجب أن يكون طيبًا لا خبيثًا، إذ لفظ الخير يدل على ذلك ويرمز إليه»[٤].

٤. **الالتزام وتحمّل المسؤولية، والإتقان:** فالعمل التطوعي في أصله تبرّع، لكن متى ما دخل فيه صاحبه وجب عليه الالتزام به وتحمّل مسؤوليته حتى يتمّه على أكمل وجه، أو يعتذر عنه بما لا يُخلّ به أو يضرّ بالمتطوّع له فردًا كان أو مؤسسة، قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى يحبُّ إذا عَمِلَ أحدكم عملاً أن يُتقِنَهُ)[٥]، ومن صور عدم الالتزام نقض العهود والمواثيق والإخلاف بالوعد بعد الالتزام به.

> **من شروط التطوع أن يكون صادرًا عن طيب نفس لا يخالجه تردّد؛ فلا يجوز الإجبار على عمل وعدّه تطوعًا، كعدم إعطاء العامل أجره، أو إضافة أعمال أو ساعات للموظفين ومطالبتهم بالاحتساب**

العمل التطوعي في الكتاب والسنة:

دلّت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة على فضل ومشروعية العمل التطوعي:

فمن القرآن الكريم:

جاءت آيات كثيرة دالة على مشروعية العمل التطوعي، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فقد أخبر تعالى في الآية الأولى أنّه شاكرٌ لفعل المتطوع عالمٌ بالقائم به حتى يتيقّن كلّ من عمل خيرًا أنّ الله تعالى يعلمه ويشكره على عمله. والمراد تطوّع خيرًا في سائر العبادات. حكاه فخر الدين الرازي وعزاه إلى الحسن البصري[٦]. وفي الآية الثانية يذكر عز وجل أنّ التطوّعَ فيه خير لفاعله. فالتطوع في شتى مجالات العبادات والقُرَبِ والصدقات خير للإنسان وخير للأمة جميعًا.

أمثلة عملية للتطوُّع في القرآن الكريم:

حفل القرآن الكريم بالأمثلة على العمل التطوعي، مما يدل على فضله وأهميته في بناء مجتمع متكافل قائم على التراحم والتضامن، ومن ذلك:

أ. **التطوع بإطعام الطعام،** قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩]، قال ابن العربي: «في الآيات تنبيه على المواساة؛ ومن أفضل المواساة وضعها في هذه الأصناف الثلاثة ... دون توقع مكافأة، أو شكر من المعطي»[٧].

(١) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية (٢٥٢/٤).
(٢) مقاصد الشريعة، للطاهر بن عاشور، ص (١٨٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٤٨٨).
(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري (١٩٥/).
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣١).
(٦) تفسير ابن كثير، (٢٣٢/٢).
(٧) أحكام القرآن، لابن العربي (٣٥٣/٤-٣٥٤).

ب. **التطوع بالشفاعة للآخرين في أمور الخير،** قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. «فمن شفَّع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير -ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم- كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومَن عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان»[١].

ج. **ما ذكره الله تعالى عن بعض رسله وعباده الصالحين** من قيامهم بأعمال التطوع مثل:

» تطوّع موسى عليه السلام بالسقي للمرأتين اللتين كانتا تنتظران حياء حتى ينتهي الرجال، فسقى لهما دون أن يسألاه ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، قال السعدي: «﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ غير طالبٍ منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى»[٢].

» تطوع ذي القرنين لحماية الضعفاء، ببناء السد بغير أجر: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥].

» تطوع الخضر في مساعدة الناس وحفظ حقوقهم: كما قصَّ الله علينا قصته في آيات عديدة من سورة الكهف مع موسى عليهما السلام.

> **التطوع من أخلاق الأنبياء والصالحين، فقد تطوع موسى عليه السلام للسقاية للفتاتين، وتطوع ذو القرنين لحماية الضعفاء، وتطوع الخضر لحفظ مال اليتامى من الضياع**

التطوّع في السنة النبوية:

وردت أحاديث كثيرة في السنة النبوية تدل على مشروعية عموم فعل الخير والإحسان للناس، والعمل التطوعي، ومن ذلك:

قال عليه الصلاة والسلام: (تَرى المؤمنينَ في تراحُمهم، وتوادّهم، وتعاطُفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تَداعَى له سائر جسده بالسَّهرِ والحُمَّى)[٣]. فالتكافل والتلاحم، والتعاطف بين أفراد المجتمع أمر مطلوب، حتى يعيشَ الفرد في كفالة الجماعة، وتعيشَ الجماعة بمؤازرة الفرد؛ تحقيقًا لمجتمع تسود فيه المحبة والأخوة.

وقال ﷺ: (المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشُدُّ بعضُه بعضًا، ثمّ شبّك بين أصابعه)[٤]. حيث أكّد النبي ﷺ على قوة الترابط بين المؤمنين فشبَّههم بالبناء المتماسك. والتشبيك بين الأصابع بيانٌ لوجه التشبيه، أي يشدّ بعضهم بعضًا مثل هذا الشدّ، قاله ابن حجر[٥]. ومعلوم أن العمل التطوعي بين الأفراد يسهم في تقوية البناء.

وقال ﷺ: (واللهُ في عونِ العبدِ ما كانَ العبد في عَون أخيه)[٦]. وقال أيضًا: (السَّاعي على الأرملةِ والمسكينِ كالمجاهدِ في سبيلِ الله)[٧]. وقال: (من نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن يَسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن سَتَرَ مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة)[٨].

(١) تفسير السعدي، ص (١٩١).
(٢) تفسير السعدي، ص (٦١٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠١١).
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٦).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٣٨١/١٠).
(٦) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
(٧) أخرجه البخاري (٥٣٥٣).
(٨) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

أركان العمل التطوعي

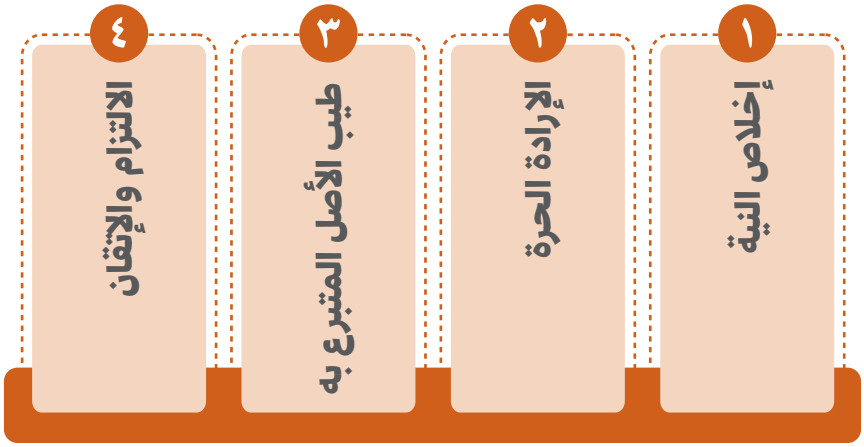

أمثلة عملية للأعمال التطوعية من السنة النبوية:

أ. التطوع ببناء المساجد وعمارتها:

عن أنس بن مالك، قال: (قدم النبي ﷺ المدينة... وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملإ من بني النجار فقال: يا بني النجار ثامنُوني بحائطكم هذا، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلّا إلى الله. فقال أنس: ... فَصَفّوا النَّخل قِبلة المسجد، وجعلوا عَضادَتيه الحجارةَ، وجعلوا ينقلونَ الصَّخرَ وهم يرتَجِزون، والنبي ﷺ معهم، وهو يقول: اللهمَّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخره، فاغفر للأنصار والمهاجره)[١].

وعن أبي هريرة ﷺ: (أن امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها بعد أيام فقيل له: إنها ماتت، فقال: أفلا كنتم آذَنتُموني بها، دُلُّوني على قبرها فأتى قبرها فصلى عليها)[٢].

فالتبرّع بالأرض لبناء المسجد، والمشاركة في بنائه، والقيام بخدمته ونظافته كلّها من أعمال التطوّع.

ب. مواساة الأرامل والمساكين:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (السَّاعي على الأرملةِ والمسكين، كالمجاهدِ في سبيلِ الله، أو القائمِ الليلَ الصائمِ النهارَ)[٣]. وقد كان النبي ﷺ يُواسي أم سُليم -أخت أم حرام، وكانتا خالتين له محرمين إما من رضاع أو نسب- فعن أنسٍ ﷺ: أن النبي ﷺ لم يكن يدخل بيتًا بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه، فقيل له، فقال: (إني أرحمها، قُتل أخوها معي)[٤].

فوائد العمل التطوعي في الإسلام:

يحقق العمل التطوعي عددًا من الفوائد أهمها ما يلي:

أ. الفوائد الشخصية:

» **تحصيل الأجر والثواب من الله تعالى:** قال رسول الله ﷺ: (في كل ِكبدٍ رَطبة أجر)[٥]، وقال: (ما تصدَّق أحدٌ بصدقة من طيّب -ولا يقبلُ الله إلا الطيِّب- إلا أخذها الرحمن بِيمينه،

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨). ومسلم (٥٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨)، و(تَقُمُّ): أي: تكنس المسجد، وتزيل عنه الأذى والقذى.
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢٨٤٤).
(٥) أخرجه البخاري (٢٣٦٣).

وإن كانت تمرة، تربو في كفِّ الرحمن حتى تكونَ أعظم من الجبل، كما يُربِّي أحدكم فُلُوه أو فَصِيله)[1].

» **مغفرة الذنوب:** العمل التطوعي من أعظم الأبواب للتكفير عن الذنوب، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]. ويقول النبي ﷺ: (إنَّ الصدقةَ لَتُطفئُ غضب الرَّب)[2].

» **زيادة الإيمان والارتقاء في مراتب البر والإحسان:** فبقدر انخراط المسلم في العمل التطوعي والإسهام فيه يزداد إيمانه، وتصفو نفسه، ومن ثم ترتفع درجة الأخلاق لديه، فيصبح مثله الأعلى من الوجهة الإحسانية أن يكون ضمن الجماعة التي تنفق في سبيل الله مما تحب: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

» **استمرار النفع والأجر بعد الموت:** لا سيما إن كان العمل التطوعي ممتدّ الأثر كالصدقة الجارية، فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: (إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثةٍ: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتَفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له)[3]. أو الوقف، فالوقف عمل تطوعي وهو من أدوم الصدقات؛ لأن الأصل فيه البقاء، وهو تحبيس الأصل وبقاؤه مع تسبيل الثمرة والانتفاع بها.

» **استغلال الأوقات فيما يفيد:** فالمسلم الساعي لنيل رضوان الله ليس لديه وقت فراغ أبدًا، فإن وجد سعة في الوقت بعد قيامه بما يجب عليه؛ فإنّه يستغلّه في أعمال التطوّع فيفيد نفسه وغيره، قال ﷺ في وصيته لأبي هريرة رضي الله عنه: (احرِص على ما يَنْفَعُكَ)[4].

» **الصحة النفسية والجسدية، وتيسير الأمور:** وهذا معروف ومشاهد عند من يبذلون أوقاتهم في فعل الخير ومساعدة الناس، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، والحياة الطيبة في الدنيا، قال ابن كثير: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»[5]، وقد قال النبي ﷺ لرجل: (أتُحبُّ أن يَلِينَ قلبُك؟ قال: نعم، قال: فأَدْنِ اليَتيمَ إليك، وامسح برأسِه، وأطعمهُ من طَعامكَ، فإن ذلكَ يُلَيِّنُ قلبَكَ، وتَقدِرُ على حاجَتِكَ)[6].

بقدر انخراط المسلم في العمل التطوعي والإسهام فيه يزداد إيمانه، وتصفو نفسه، ومن ثم ترتفع درجة أخلاقه، فيصبح مثله الأعلى من الوجهة الإحسانية أن يكون ضمن الجماعة التي تنفق في سبيل الله مما تحب

ب. الفوائد الاجتماعية:

» **غرس الشعور بالأخوّة:** يهدف العمل التطوعي إلى غرس الشعور بالأخوة بين المؤمنين، فالأخوّة في الله رابطة توجد بين شخصين أو أكثر بمجرد اشتراكهما في الانتماء إلى المنهج الرباني، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. كما جعل من الأخوة العلاقة الوحيدة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال رسول الله ﷺ: (أنا شهيدٌ أنَّ العباد كلهم إخوة)[7].

» **غرس الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية:** فالفرد مسؤول عن نفسه، ثم عن الآخرين الأقرب فالأقرب، وفي الحديث: (إبدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإنْ فَضَلَ شيء فَلأهلك، فإن فضَلَ عن أهلك شيء فَلِذي قرابتك، فإن فَضَلَ عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا)[8].

(١) أخرجه مسلم (١٠١٤). الفُلُوّ (بضم الأول والثاني وتشديد الواو): ولد الفرس. والفَصيل: ولد الناقة عندما يستغني عن الرضاع، فيقبل الانفصال عن أمه.
(٢) أخرجه الترمذي (٦٦٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٥) تفسير ابن كثير (٦٠١/٤).
(٦) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٩٦).
(٧) أخرجه أبو داود (١٥٠٨).
(٨) أخرجه مسلم (٩٩٧).

وتجسيدًا لمضامين هذه المسؤولية فقد نهى النبي ﷺ أن يبيت المؤمن شبعان وجاره جائع (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع)[١]، كما جسد المسؤولية الجماعية حينما قال : (أيما أهل عَرْصَةٍ ظلّ فيهم امرؤٌ جائع، فقد برئت منهم ذمَّة الله)[٢]. وقد همّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يجعل في عام الرمادة مع كل أهل بيتٍ عندهم طعامٌ مثلَهم من الفقراء ليطعموهم، وقال: (لن يَهلَك أحد على نصف شَبَعِه)[٣].

ج- الفوائد الاقتصادية:

» **تحرير المعاملات من الاستغلال:** فالقرض مثلاً هو نوع من الأعمال الخيرية التي حثّنا عليها ديننا الإسلامي، وقد حرّم الإسلام أخذ الفائدة على القرض واعتبره من الربا المحرّم، وهذا مما لا شك فيه ينمي روح الإخاء والتعاطف بين أفراد المجتمع، ويقضي على الأحقاد بينهم.

» **القضاء على البطالة:** من الفوائد الاقتصادية المهمة تحريك عجلة الاقتصاد عن طريق تفجير المواهب والطاقات في صفوف الشباب والعاطلين عن العمل بمساعدتهم برؤوس أموال صغيرة لتأسيس مشاريع تنموية مربحة تمكنهم من النفقة على أنفسهم وعلى أسرهم، وفي نفس الوقت تسهم في النهوض بالاقتصاد، وقد كان النبي ﷺ سباقًا لهذه المبادرة الطيبة ففي الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه: (أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حِلْسٌ نَلبَس بعضَه ونبسط بعضَه، وقَعْبٌ نشرب فيه الماء. قال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: من يشتري هذين؟. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري وقال: اِشتَرِ بأحدهما طعامًا فانبِذْهُ إلى أهلك، واشتر بالآخر قُدُّومًا فائتني به، فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله عودًا بيده، ثم قال: اذهب فاحتَطِب وَبِع، ولا أَرينَّك خمسةَ عشرَ يومًا، ففعل. فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وبعضها طعامًا. فقال رسول الله ﷺ: (هذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٣٩٦)، والمقصود (بالعَرْصَة): أهل الحي والمكان.
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢٩٤/٣): عن ابن عمر، أن عمر قال: «لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم إلا أن أُدخل على كل أهل بيت عِدَّتَهم فيقاسمونهم أنصافَ بطونهم حتى يأتي الله بِحَيًا فعلت، فإنهم لن يهلكوا عن أنصاف بطونهم».

خيرٌ لك من أن تجيءَ المسألةُ نُكتةً في وجهك يوم القيامة)[1].

» **الصمود في وجه الأزمات الاقتصادية:** وقد مدح النبي ﷺ الأشعريين بقوله: (إنَّ الأشعريينَ إذا أرمَلوا في الغزو أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسَموه بينهم في إناءٍ واحد بالسَّوية، فهم مني وأنا منهم)[2].

» **تخفيف العبء عن المنظمات الإنسانية والمجتمعية:** فإنّها مهما بلغت من القوة والتوسّع فلن تستطيع أن تفي باحتياجات جميع الفقراء والمساكين ولا سيما في وقت الأزمات كالحروب والكوارث.

يعتقد البعض أنّ النية الطيبة وحدها كافية للنهوض بالعمل التطوعي والرقي به نحو الأفضل، وهذا ليس صحيحًا فعلى المستوى المؤسسي لا بد من التنظيم والتخطيط الاستراتيجي، من أجل الاستثمار الأمثل للموارد، والسير الراشد نحو الأهداف

عقبات في طريق العمل التطوعي:

قد يواجه العمل التطوعي عقبات تحدُّ من فاعليته، بما في ذلك:

١. غياب الوعي الكافي بأهمية العمل التطوعي، وبالتالي: العزوف عن الانخراط فيه.

٢. ضعف الوعي المجتمعي في التعامل مع المتطوع، فيشعر المتطوع باستغلال تطوعه لأهداف شخصية لبعض المسؤولين.

٣. الحاجة المادية التي تفرض على الكثيرين السعي للعمل المأجور والإعراض عن العمل التطوعي، أو تستهلك جميع أوقاتهم فلا يبقى للتطوع وقت ذو بال.

٤. السعي من خلال العمل التطوعي لتحقيق مصالح ومكاسب شخصية.

٥. العشوائية وضعف التخطيط والتنظيم لدى كثير من المؤسسات والمنظمات التطوعية، إضافة لغياب العمل وفق الأولويات، ومشروعات التنمية المستدامة.

٦. ضعف تأهيل القائمين على العمل الخيري التطوعي.

٧. محاربة الأنظمة والحكومات المستبدَّة للعمل الخيري وتجفيف منابعه.

سبل تطوير العمل التطوعي:

كي ينجح العمل التطوعي في تحقيق أهدافه ينبغي العناية بتطويره والارتقاء به قصد المضي فيه وقطف ثماره على المستوى الفردي والمجتمعي، ومن هذه السبل:

» ترسيخ وتصحيح ثقافة العمل الخيري:

بنشر الوعي بمكانة العمل التطوعي وأهميته في النهوض بالمجتمعات، من خلال عقد مؤتمرات وندوات وملتقيات علمية هادفة، مع نشر الأبحاث والدراسات في ذلك، إلى جانب تصحيح مفهوم العمل التطوعي العام، الذي لا يشترط فيه أن يكون ضمن مؤسسة أو في مجالات معينة، بل توسيع المفهوم ليشمل أي معروف أو إحسان بما في ذلك إماطة الأذى عن الطريق، وإرشاد التائه، وسقاية الحيوان العطشان، وهذه الوجوه بهذا الأفق الواسع تدخل في آثار تنمية المجتمع ورُقِيِّه إذا تحول إلى ثقافة عامة، وكان الجميع يخدم الجميع ويسعى لكمال المجتمع.

» التوعية بأهمية تجديد النية:

فالعناية بمقصد (نية) المتطوِّع يساعد على تعزيز الدافعية لديه، وشحذ عزيمته، كما أنه ينمِّي الرقابة الذاتية لدى المتطوعين بشكل عام؛ على اعتبار أنهم يعملون لوجه الله وابتغاء ما عنده، وتحرير مقصد المتطوعين من قصد عدسات الإعلام وشبكات التواصل إلا ما كان من باب تحفيز الآخرين.

» التخطيط والتنظيم:

يعتقد البعض أنّ النية الطيبة وحدها كافية للنهوض بالعمل التطوعي والرقي به نحو الأفضل،

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

من فوائد وثمرات العمل التطوعي

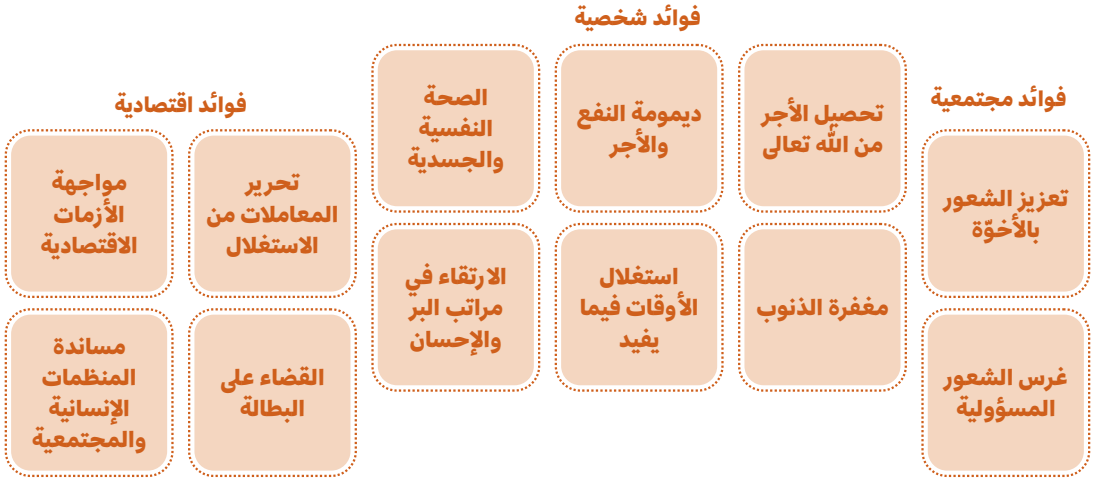

لكن لكي تنجح أي مؤسسة أو منظمة تطوعية لابد أن تعتمد على التخطيط الاستراتيجي والتنظيم.

فالتخطيط يمكّن المؤسسة التطوعية من تحديد الأهداف، ثم تحقيقها.

» التدريب:

فهو: «نقل معرفة ومهارات محدّدة وقابلة للقياس»[1]. ويفيد في تنمية كفاءات المتطوعين، وتمكينهم من إتقان عملهم وبالتالي حبّهم له ورغبتهم في الاستمرار فيه، كما أنّه يجذب المزيد من المتطوعين للعمل.

» التحفيز:

مما لا شك فيه أن تشجيع الإنسان وتحفيزه لعمل الخير -وخصوصًا إذا كان عملاً تطوعيًّا- له أهمية كبيرة في قيام هذ العمل وتطويره واستمراره، ومما يدل على أهمية التحفيز في تطوير العمل التطوعي ما يلي:

- أنّه وسيلة لإتقان العمل.
- أنّه السبيل نحو الإبداع والتجديد والابتكار.
- يعتبر أداة التطوير والتغيير.
- يشحذ همم العاملين في القطاع الخيري التطوعي لبذل المجهود المضاعف.

خاتمة:

مجالاتُ إعمار الأرض كثيرة ومتنوعة، وحاجاتُ الناس ومشكلاتُهم كبيرة ومتجددة، والأحداث في العالم عصيبة ومتلاحقة؛ وهذا يستدعي من العاملين لخير أمّتهم ومجتمعاتهم الجدّ في العمل التطوعي، والاستمرار فيه لأقصى درجة وعدم التأخر والتراخي عنه مهما اشتدّت الظروف، وتطويره وتنظيمه ليواكب الأحوال والظروف ويحدّ من المصاعب والكروب. وليعود -أيضًا- بالخير على المتطوعين زيادةً في إيمانهم، ورفعةً لدرجاتهم، وصفاءً لنفوسهم، وسعادةً في حياتهم، وبركة في أنفسهم وأزواجهم وذرياتهم وأموالهم.

(١) ينظر: تأصيل نشاط التدريب من منظور إسلامي وطبيعة المعرفة في الصناعة المالية الإسلامية، أحمد محمد محمود نصار، ص (٥).

قراءة في كتاب: المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، للدكتورة كاميليا حلمي محمد

أ. جهاد بن عبدالوهاب خيتي (*)

يُتحدث كثيرًا في وسائل الإعلام عن المواثيق والمعاهدات التي تدَّعي حماية المرأة والطفل ورعاية الأسرة، وتُعقد للتوقيع على هذه المواثيق المؤتمرات والمناسبات، ويسلَّط عليها الضوء ويناصرها العديد ممن قد لا يعرف عنها شيئًا، فما هي حقيقة هذه المواثيق؟ وهل وضعت فعلاً لصالح المرأة؟ وما أهدافها ومآلات بنودها وتشريعاتها؟ وما دورنا تجاهها؟ نجد الإجابة على هذه الأسئلة في هذه القراءة.

الكتاب:

عنوانه: «المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة بداية من تأسيس منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م وحتى مطلع عام ٢٠١٩م».

يقع في ٧٤٥ صفحة، وطبع الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

المؤلفة:

» حاصلة على دكتوراه في المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، وهذا الكتاب هو رسالتها التي حصلت بها على هذه الدرجة من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، شعبة الدراسات الأسرية، بجامعة طرابلس ٢٠١٩م

» ماجستير في المفهوم الفعلي لمصطلح العنف الأسري في أهم الاتفاقات الدولية، من أكاديمية الفرحة لعلوم الأسرة- بريطانيا ٢٠١٢م

» دبلوم المجتمع المدني وحقوق الإنسان، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة عام ٢٠٠٦م.

» لها نشاط علمي وتدريسي وعضوية في العديد من المؤسسات الدولية والجامعات والهيئات الاستشارية واللجان المهتمة بموضوع الأسرة، وشاركت في العديد من المؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية، والعديد من المؤتمرات الدولية بالأمم المتحدة كمنسقة لائتلاف المنظمات الإسلامية.

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

المقدّمة:

تسعى الدول الغربية إلى فرض وصايتها على شعوب الأرض قاطبة؛ من خلال عولمة مجموعة من القيم التي تسود مجتمعاتها، وذلك بعد أن يتم صياغتها في إطار فضفاض يسمى: حقوق الإنسان، من خلال هيئة الأمم المتحدة التي أسستها الدول العظمى عام ١٩٤٥م لتكون أداةً لها في حكم العالم، وبالتحديد من خلال لجان المرأة والطفل بها؛ حيث تتم صياغة مفردات تلك المنظومة الغربية في صور مواثيق واتفاقيات دولية، يتم طرحها على الحكومات للتوقيع عليها، مع فتح الباب لوضع التحفظات على بعض بنودها المختلف عليها.

يلي مرحلة التوقيع مرحلة أخرى هي التصديق عليها من خلال المجالس النيابية في الدول المختلفة، والتي يتبعها عملية تغيير وتبديل شاملة للقوانين الوطنية؛ لتصبح هذه الاتفاقيات مرجعية تشريعية إلزامية تحلّ محلّ المرجعيات الأصلية للمجتمعات المختلفة، والتي عادة ما تكون مستمدة من أديان تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها.

وبعد أن يتم تنفيذ المتفق عليه من بنود هذه الاتفاقيات، تبدأ مرحلة الضغط لرفع التحفظات التي وضعتها الدول على بنود الاتفاقيات التي رأت هذه الدول استحالة الموافقة عليها وتطبيقها؛ لتعارضها الشديد إما مع الدين والقيم التي تحكم المجتمعات، وإما مع الدساتير والقوانين الوطنية.

وتأتي الضغوط الدولية بأشكالها المتعددة؛ لجعل تلك الاتفاقيات المرجعية التشريعية الوحيدة التي تحلّ محلّ كل المرجعيات التشريعية لشعوب العالم، في تناقض غريب بين ما تدّعيه منظمة الأمم المتحدة من حماية للديمقراطية والحرّيات، ومن احترام الثقافات وأديان شعوب العالم المختلفة، وبين ما تمارسه بالفعل على أرض الواقع.

وتحمل هذه المواثيق الدولية رؤية أحادية لقضايا المرأة والطفل، رؤية تعبر عن الفكر النسوي الغربي «الراديكالي»؛ حيث ترتكز على عدد من المصطلحات المطاطة؛ منها: العنف ضد المرأة، والجندر، والصحة الإنجابية وغيرها، مع ربطها جميعًا بالتنمية المستدامة.

وترفع تلك المواثيق شعارات براقة لكنها مفخخة؛ مثل: «المساواة» و«حقوق الإنسان»، ثم تدعو إلى التساوي المطلق بين المرأة والرجل في جميع الميادين: السياسية والاقتصادية والثقافية والمدنية، سواء في الأدوار أو الحقوق أو التشريعات، وتعتبر أي فارق في هذه الأدوار أو التشريعات بين الرجل والمرأة «تمييزًا وعنفًا ضد المرأة» ينبغي القضاء عليه. كما تدعو إلى إطلاق الحريات الجنسية من زنًا وشذوذ، في مقابل التضييق على الزواج ورفع سنّه، وغير ذلك من الأفكار التي تخالف الإسلام، وتؤدّي إلى تفكيك الأسرة وهدمها.

> **تأتي الضغوط الدولية بأشكالها المتعددة؛ لتُحلَّ اتفاقياتِ المرأة والأسرة محلّ كل المرجعيات التشريعية لشعوب العالم، في تناقض غريب مع ما تدّعيه منظمة الأمم المتحدة من حماية للديمقراطية والحرّيات، ومن احترام ثقافات وأديان شعوب العالم المختلفة**

وإسهامًا من المؤلفة في الكشف عن هذه المخططات، وحتى لا تصل المجتمعات الإسلامية إلى ما وصلت إليه المجتمعات الغربية من انحلال وتفكك للأسرة ونتائج اجتماعية مدمّرة؛ فقد قامت بهذه الدراسة لبيان أهم الاستراتيجيات والسياسات التي رسمتها المواثيق الدولية للمرأة والطفل لهدم الأسرة، وأهم المظلات والآليات التي تنتهجها تلك المواثيق لتحقيق ذلك الغرض.

الباب التمهيدي: الأمم المتحدة وتغلغل الفكر النسوي الراديكالي فيها:

أولاً: الهدف الحقيقي لتأسيس الأمم المتحدة:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قامت الدول العظمى المنتصرة في هذه الحرب بتأسيس منظمة الأمم المتحدة ورفعت شعار: «تعزيز السلام وحقوق الإنسان»، وقد كان هذا الشعار غطاءً للمضمون الفعلي الذي لم يتم الإعلان عنه لكن يشهد له الواقع، وهو: القضاء على مقاومة الشعوب لاحتلال ووصاية الدول العظمى، وإبقاء وإحكام السيطرة عليها.

ومن أهم الوسائل التي اتبعتها الأمم المتحدة للوصول إلى هذه الغاية: القضاء تمامًا على منظومة الأخلاق والقيم بشكل عام، والقيم الأسرية بشكل

خاص[1] من خلال فرض رؤيتها لحقوق الإنسان على الشعوب، ومراقبة الحكومات ومحاسبتها في حال عدم تنفيذها.

ثانيًا: الفكر النسوي الراديكالي وتغلغل النسويات الراديكاليات في الأمم المتحدة:

الحركة النسوية الراديكالية هي: حركة فكرية سياسية اجتماعية متعددة الأفكار والتيارات، ظهرت في أواخر الستينيات، تسعى للتغيير الاجتماعي والثقافي، وتغيير بُنى العلاقات بين الجنسين وصولاً إلى المساواة المطلقة كهدف استراتيجي، وتختلف نظرياتها وأهدافها وتحليلاتها تبعًا للمنطلقات المعرفية التي تتبناها، وتتسم أفكارها بالتطرّف والشذوذ، وتتبنّى صراع الجنسين وعداءهما، وتهدف إلى تقديم قراءات جديدة عن الدين واللغة والتاريخ والثقافة وعلاقات الجنسين.

ومن أخطر آراء هذه المدرسة: أنّه ينبغي إلغاء ثنائية الذكر والأنثى وتحقيق مساواة الجندر[2]، وأنّ الأصل في العلاقات الجنسية هي العلاقة «المثلية»، وأنّ الزواج هو السجن الأبدي للمرأة يقطع آمالها وأحلامها، وأنّ المرأة ينبغي أن تتحرر من الإنجاب والإرضاع وتربية الأولاد، وأن يكون لها حقّ الإجهاض.

> **من أخطر آراء الحركة النسوية الراديكالية: إلغاء ثنائية الذكر والأنثى وتحقيق مساواة الجندر، وأنَّ «المثلية» هي الأصل في العلاقات، وأن الزواج سجن للمرأة يقطع آمالها وأحلامها، وأنّ على المرأة أن تتحرر من الإنجاب والإرضاع وتربية الأولاد، وأن يكون لها حقّ الإجهاض**

ثالثًا: دور النسويات في تأسيس لجان الأمم المتحدة وصياغة مواثيقها الدولية:

تقول د. كاثرين بالم فورث: «إنّ المواثيق والاتفاقات الدولية التي تخصّ المرأة والأسرة والسكّان تصاغ في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: الأنثوية المتطرّفة، وأعداء الإنجاب والسكّان، والشاذّون والشاذّات جنسيًا».

وقد شاركت النسويات في صياغة ميثاق الأمم المتحدة، وصياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وفيهما النصُّ على التساوي المطلق بين الرجال والنساء، كما قمن بتأسيس «لجنة مركز المرأة»، مهمتها تعزيز حقوق النساء في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وإدماج لغة «جندرية» في جميع الاتفاقيات الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة.

وكثير من هؤلاء النسويات منتميات إلى اليهودية ويظهرن اعتزازهن بالتراث اليهودي علاوة على انخراطهن في الحركة الصهيونية.

الباب الأول: الاستراتيجيات والسياسات التي رسمتها المواثيق الدولية للمرأة والطفل لهدم واستئصال الأسرة:

صاغت الأمم المتحدة من خلال المواثيق الصادرة عنها في مجال حقوق الإنسان والمرأة والطفل والسكان والتنمية استراتيجيات كاملة يؤدي تطبيقها على أرض الواقع إلى التسارع في هدم الأسرة، وهذه الاستراتيجيات تعمل على مسارين:

الأول: صرف الشباب عن الزواج؛ لمنع تكوين أسر جديدة، والتشجيع على الزنا، وذلك من خلال:

١. رفع سن الطفولة إلى الثامنة عشرة، وبالتالي رفع سن الزواج، واعتبار أي زواج بفتاة دون هذا السن: جريمة؛ باعتباره: «زواج أطفال».

٢. التحذير من الزواج المبكّر وأنّه سبب في الحدّ من فرص التعليم والعمل بالنسبة للمرأة، وتعريض صحتها للخطر، كما أنّه وسيلة للاتجار بالنساء! وسبب في الزيادة السكانية وحجم الأسرة.

٣. تحديد السن القانونية لاستقلال الفتاة بقرار ممارسة العلاقات الجنسية وهو ١٥ سنة، وعدم تجريم الزنا ما دام رضائيًا، وعدم تجريم الجنس خارج الزواج، ودمج المراهقات الحوامل في التعليم النظامي، والاعتراف بأبنائهن من الزنا في الوقت الذي يتم فيه إنكار أبناء الزواج الشرعي المبكر!

(١) وذلك لأنّ الأسرة هي المحضن المسؤول عن التربية وتوريث الدين والقيم والأخلاق، والانتماء للوطن وشرف الدفاع عنه.

(٢) تقوم «نظرية الجندر» على إلغاء ثنائية الذكر والأنثى، وإحلال كائن افتراضي اسمه «النوع الاجتماعي» الذي يحدّد هو نفسه فقط هويته، ويقرّر ما إذا كان يريد أن يكون ذكرًا أو أنثى، وبالتالي: إغراق المجتمع في فوضى حرّية التصرّف في الجسد، وحرية الإنجاب أو الإجهاض، وفوضى الإباحية الجنسية والشذوذ، وفوضى تبادل الأدوار بين الرجال والنساء.

٤. التشجيع على «الممارسات الجنسية المسؤولة» والتي تعني: حصول العلاقة الجنسية بتراضي الطرفين، مع استخدام وسائل الحماية المعروفة، وتحمّلهما المسؤولية لما ينتج عنها من حمل أو أمراض أو غير ذلك.

٥. تعميم برامج الصحة الجنسية والإنجابية لكل الأفراد من كل الأعمار بغض النظر عن كونهم متزوجين أو غير متزوجين وبالمجّان ومن خلال وسائل الإعلام والمدارس ومراكز الرعاية الأولية وغيرها، مع استهداف واضح للمراهقين والصغار. وهذه البرامج تشمل: التثقيف الجنسي، والتدريب على استخدام وسائل الحماية، ووسائل منع الحمل، والتعليم بالأقران في التثقيف الجنسي، ووضع سياسات وبرامج لإباحة الإجهاض للتخلّص من الحمل غير المرغوب به. مع النصّ في جميع المواثيق والاتفاقيات على ضرورة إغفال الحالة الزوجية للمرأة عند تقديم الرعاية لها.

٦. إباحة الدعارة وحمايتها قانونيًا ومجتمعيًا من خلال اعتبارها نوعًا من أنواع «العمل».

٧. إباحة الشذوذ الجنسي، والدعوة إلى تمتّع الشواذ بعدد من الحقوق: كالحقّ في الحياة والأمن والخصوصية، والحق في اعتبارهم أسوياء غير مرضى ومساواتهم بالآخرين مساواة تامّة، والحق في التعبير وتكوين الجمعيات والتجمّعات[1].

٨. الضغط لأجل رفع «التحريم» و «الوصم بالعار» عن الزناة والشاذين جنسيًا، وإلغاء القوانين التي تجرّمهم وتعاقبهم، وتأمين المناخ المحيط بهم؛ لتشجيعهم على طلب خدمات الصحة الجنسية والإنجابية بلا خوف.

٩. إضافة إلى فرض وتعميم منظور الجندر (الهوية الجنسية) وإدراجه في صميم الأجندة العالمية والمؤتمرات التي تعقدها الأمم المتحدة، ووصف القوانين الوطنية التي تقرّ بوجود فوارق بين الجنسين بأنّها أحكام تشريعية تمييزية والمطالبة بإبطالها، والضغط على الحكومات لتطبيق «مساواة الجندر».

من استراتيجيات المواثيق الدولية لهدم الأسرة: دفع المرأة للعمل في المجالات التي يشغلها الرجال عادة؛ لتعزيز الندّية بينهما، وتحقيق استغناء المرأة عن الرجل. وفي المقابل: دفع الرجال للمجالات التي تعتمد على المرأة إمعانًا في تغيير الفطرة وخلط الوضع الاجتماعي

الثاني: هدم الأسر القائمة، وذلك من خلال:

١. العمل على المساواة التامّة بين الرجال والنساء وفي جميع المجالات، وإحداث تغيير جذري في الأدوار الفطرية لكل من الرجل والمرأة داخل الأسرة، وأهمها: اختصاص الرجل بمهام القوامة واختصاص المرأة بمهام الأمومة ورعاية المنزل، والتي أطلقت عليها الأمم المتحدة مصطلح: (القوالب الجندرية النمطية)! والدعوة إلى توزيع كافة المهام بالتساوي بين الرجل المرأة، ولو أدى ذلك لقيام الرجل بأعمال المنزل وخروج المرأة من البيت للعمل.

٢. دفع المرأة للعمل في الوظائف غير التقليدية وفي المجالات التي يشغلها الرجال عادة وكأنّهم يتعمّدون الاستحواذ عليها؛ لتعزيز بناء العلاقة بينهما على الندّية، ولتحقيق الاستقواء والاستقلال الاقتصادي للمرأة وبالتالي استغنائها عن الرجل، وتحكّمها في كلّ قراراتها الحياتية. وفي المقابل: دفع الرجال للعمل في المجالات التي تعتمد على المرأة إمعانًا في تغيير الفطرة وخلط الوضع الاجتماعي. مع الدعوة إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث.

٣. السعي لتحقيق الاستقواء السياسي للمرأة من خلال دفعها إلى دوائر صنع القرار ودعمها بكل الوسائل لتحصل على القوة اللازمة لإحداث التغيير المجتمعي المستهدف والذي تنص عليها المواثيق الدولية في مجال الأسرة. والمعيار الوحيد لوصولها إلى هذه المناصب ليس الكفاءة وإنّما هو تحقيق المساواة مع الرجال. وفي سبيل وصولها للعمل السياسي: يأتي تخليها عن وظيفتها في الأسرة، واقتسام مسؤوليات الأسرة بالتساوي مع الرجل، وغير ذلك من الأمور.

(١) وقد وصل الأمر إلى تأسيس مجموعة أممية للشواذ عام ٢٠٠٨ تسمّى: «مجموعة الأمم المتحدة الأساسية للمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجندرية»، وإطلاق حملة «أحرار ومتساوون» عام ٢٠١٣ هدفها تعريف العالم بقضية الشذوذ وإعطاء الشواذ كل الحقوق.

٤. العمل على تحقيق الاستقواء الاجتماعي للمرأة، وهو نتيجة حتمية للاستقواء الاقتصادي والسياسي، وهدفه النهائي: إحداث تغييرات جذرية في القيم والقوانين والسلوكيات والعلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، والحد من النسل.

٥. العمل على تحقيق المساواة التامة وإلغاء الفوارق بين الرجل والمرأة، ومن وسائله:

- إلغاءُ مبدأ (الولي) في الزواج، وإعطاء المرأة الحرية الكاملة في العلاقات والسكن.
- بناء العلاقة بين الزوجين على «المشاركة الكاملة في الإنتاج والإنجاب»!! وإلغاء (القوامة) على المرأة من خلال إلغاء مقوّماتها مِنْ: طاعة الزوجة لزوجها، واستئذانه للخروج أو السفر، والالتزام بمسكن الزوجية، ومنع الرجل من التعدد والحق في الطلاق، وعدم إلزام المرأة بالعدّة، وإعطائها حقّ «التعقيم».
- توظيف مصطلحات مطّاطة مثل «العنف ضد المرأة» لتمكين المرأة من الخروج عن طاعة زوجها، بل الشكوى ضده بتهمة «التحرّش الجنسي» و«الاغتصاب الزوجي»!.
- دفع المرأة لامتلاك المميزات البدنية العضلية التي تعينها على أداء المهام الثقيلة التي ستقوم بها بدل الرجل، وهذا يفسّر التركيز الشديد على دخول النساء للمجالات الرياضية العنيفة.

٦. العمل على تحقيق «استقواء الطفل» وهو ما يؤدّي إلى تمرّده على والديه ورفض أي قيود أو ضوابط يفرضها دين أو مجتمع أو عُرف، من خلال: منع أي شكل من أشكال تأديب الأطفال، ومنع التدخّل في خصوصياتهم، ومنح الدولة حق انتزاع الطفل من أسرته وتوفير أسرة بديلة عند أدنى مخالفة، والمساواة بين الطفل الشرعي وغير الشرعي.

من عجائب المواثيق الدولية أن وثيقة (الحدّ من الكوارث) تنصّ على «مساواة الجندر» و«استقواء المرأة» و«خدمات الصحة الجنسية والإنجابية»!!

الباب الثاني: المظلات والآليات التي تستخدمها الأمم المتحدة لهدم واستئصال الأسرة:

أوّلًا: تمكّنت الأمم المتحدة من تمرير أجنداتها الرامية لهدم واستئصال الأسرة من خلال مظلات متعددة من أهمّها:

١. مظلة «حقوق الإنسان والحريات الأساسية»: وهذه المظلة هي المفتاح لتدويل وتقوية الأجندة النسوية الراديكالية، من خلال تفسير هذه الحقوق والحريات وفق رؤيتهن. ومن خلال المنظور الأممي لحقوق الإنسان والحريات الإنسانية يتم عمل التغييرات الجذرية في المجتمعات لاستئصال الأسرة من خلال مسارين:

- المساواة التامة بين الرجل والمرأة (مساواة الجندر) والتي من خلالها يتم إلغاء القوامة وترك الأسرة بلا قائد، وتقوية المرأة لتستغني عن الرجل في الأسرة.
- إشاعة الفواحش من زنى وشذوذ جنسي وما يترتب عليها، باعتبارها من الحريات الشخصية؛ لصرف الشباب عن الزواج، ومن ثمّ استئصال الأسرة.

٢. مظلة «القضاء على العنف ضد المرأة»: للتنفير من الزواج الشرعي ومحاربته، لاسيما إذا كان تحت ١٨ سنة باعتباره زوجًا قسريًا، وتمرير مصطلح التحرّش والاغتصاب الزوجي، وإقرار الشذوذ، وحماية الشاذّات والزانيات من العقوبة.

٣. مظلة «الصحة» و«الوقاية من الإيدز»: لتمرير المساواة الجندرية، وتطبيع الزنا والدعارة والشذوذ، وإباحة الإجهاض.

٤. مظلة «الإسكان والتنمية الحضرية» و«التنمية المستدامة»: لتمرير «المساواة الجندرية»، و«استقواء المرأة»، والقضاء على «الزواج المبكر»، والقضاء على عمل الأطفال وبالتالي يصبح عمل الشاب تحت ١٨ سنة مجرّمًا قانونًا، وضمان حقوق الشواذ، وإباحة الإجهاض، وتخفيض نسل شعوب العالم الثالث.

٥. مظلة «حق المرأة في السكن اللائق»: لتمرير حظر تعدّد الزوجات، والتسوية المالية بعد الطلاق بين الزوجين، والمساواة في الإرث،

الثمرات النهائية للمواثيق الدولية في مجال المرأة والأسرة

ويترتب على هذه السياسات والتوجهات:
نشر الشذوذ والفوضى الجنسي، وتقليل معدلات الإنجاب وتهديد مستقبل البشرية

وإيجاد سكن مناسب لمن تريد مغادرة بيت زوجها! وإعطاء الزانيات والشاذات والداعرات حقوقَ النساء السويّات نفسها!

٦. مظلة «العمل الإنساني الدولي»، و«الإغاثة في الكوارث والحروب والنزاعات»: للوصول إلى المجتمعات الفقيرة والمتضررة من الحروب، ولسحب البساط من تحت المنظمات الإسلامية العاملة في المجال نفسه.

والعجيب أن وثيقة مثل وثيقة: (الحدّ من الكوارث) تنصّ على «مساواة الجندر» و«استقواء المرأة» و «خدمات الصحة الجنسية والإنجابية»!! فهل هذه الأمور ستحدّ من الكوارث؟ أو تواسي من أصابتهم فعلاً؟ أم أنّها مظلّة لتمرير الأجندات المدمرة للمرأة والأسرة والمجتمع والأمّة بل والإنسانية جمعاء، تمامًا مثل المظلات السابقة؟

ثانيًا: تمكّنت الأمم المتحدة من تمرير أجنداتها الرامية لهدم واستئصال الأسرة من خلال الآليات والمنظمات غير الحكومية المتعاونة معها، ومن ذلك:

١. استغلال التعليم في نشر ما تتضمنه مواثيقها مما سبق بيانه، ومن ذلك: تعزيز حقوق الإنسان والحريات الأساسية وفق رؤية الأمم المتحدة. وتعزيز التسامح والصداقة مع الجميع بدأً من المحتل الغاصب إلى الشاذين جنسيًا. والعمل على اختلاط التعليم وتأنيث الرياضة. إضافة إلى وضع برامج عديدة تساعد المدرسين على تجاوز الحرج الشديد في الحديث عن قضايا خطيرة مثل: أنّ الممارسات الجنسية بأشكالها المختلفة يمكن أن تكون تعبيرًا عن الحب، وأنّ بإمكانهم القيام بهذه العلاقات بشرط الحصول على الخدمات الصحية الجنسية والإنجابية! وأنّ الأسرة لها أشكال متعدّدة كأُسَر الشواذ، وأنّ الطفل هو مَن يقرر مَن يلمسه وأين وبأيّة

طريقة، وتهيئة الطفل لاحتمال أن يتربّى في أسرة بديلة، وغير ذلك.

٢. التركيز على استخدام الإعلام كواحدة من أهم آليات تسويق أجنداتها حول المرأة والأسرة؛ وأفردت له في مواثيقها أبوابًا وفصولاً كاملة، وحثّت حكومات الدول الأعضاء على زيادة الاستفادة على نحو فعّال من وسائط الإعلام الترفيهية بما في ذلك المسلسلات والتمثيليات والمسرح ونحوها.

ومن مظاهر التحوّل الإعلامي الكبير في مجال حرف الأسرة وتفكيكها:

- التركيز على المساواة التامة بين الرجل والمرأة في جميع الميادين، وإنهاء ولاية الرجل على المرأة وقوامته عليها. وقد وقعت الأمم المتحدة اتفاقيات مع الدول المختلفة بخصوص المساواة بين الرجل والمرأة في الإعلام.
- القضاء على «القوالب النمطية لأدوار الجنسين» والمتمثلة في الأب والأم والأولاد والأسرة الممتدة، وتغييرها على أساس «الجندر»؛ فبات من المألوف جدًا أن يظهر الرجل وهو يعتني بالأطفال والطبخ، وتظهر المرأة كسيدة أعمال أو شرطية!
- نشر الانحلال الأخلاقي والرذيلة من خلال البرامج والمسلسلات والأفلام التي تتعمّد كسر الحياء والفضيلة، وإشاعة «الثقافة الجنسية» حسب النموذج الغربي، وتعزز «استقواء المرأة» و«استقواء الطفل»، وحق «تغيير الجنس» و«الإجهاض» ونحوها.
- نشر الشذوذ والتعاطف معه ودعمه، من خلال: الأفلام والمسلسلات التي تصوّر الشاذين ومعاناتهم، والأسر التي ينشئونها وأنّها أسر فيها مقوّمات الاستقرار، وتمكين الشواذ من الإعلاميين من بث برامجهم الاجتماعية على القنوات الفضائية، إضافة للحملات الإعلامية التي أطلقتها الأمم المتحدة بغرض تسليط الضوء على «تنوّع المثليين» ومكافحة «رهاب المثلية» مثل حملة: «لست وحدك»!
- السماح بنشر هذا الركام العَفِن إضافة إلى الأفلام الإباحية بكافّة أشكالها على مواقع التواصل الاجتماعي، دون ضابط سوى تحديد سنّ المشاهدة في بعضها.

٣. استغلال المنظمات غير الحكومية، ومنظمات المجتمع المدني، لتنفيذ أجندات الأمم المتحدة، وللضغط على الحكومات غير المتعاونة.

ومن المنظمات العالمية غير الحكومية ذات الشراكة مع الأمم المتحدة: منظمة «العفو الدولية»، ومنظمة «مراقبة حقوق الإنسان»، ومنظمة «المساواة الآن»، و «عيادة القانون الدولي لحقوق الإنسان للمرأة»، و«المنظمة النسوية للبيئة والتنمية»، ومنظمة «حقوق المرأة في التنمية».

ومن المنظمات العربية ذات الشراكة مع الأمم المتحدة: «منظمة المرأة العربية» التي تعمل في إطار جامعة الدول العربية، ومنظمة «مفتاح» ا لفلسطينية .

٤. توظيف القيادات الدينية لتوجيه العامّة نحو الأمور التي تتفق مع توجّهاتها، كإضفاء الشرعية على «استخدام خدمات تنظيم الأسرة» و«الخدمات الصحية الجنسية والإنجابية» والتي تعني في نصوص الأمم المتحدة: حرية ممارسة الجنس، وحرية الإجهاض. والتعاطف مع المريض الذي يصاب بالأمراض الجنسية بغض النظر عن سبب الإصابة بالمرض.

٥. تقديم الدعم والتمويل للمنظمات والأفراد؛ لمساعدتها ومساندتها ودعمها لأجنداتها، وقيامها بتطبيق اتفاقياتها.

ثالثًا: الضغط للتطبيق الكامل للمواثيق الدولية، وتغيير القوانين والتشريعات الوطنية والأعراف والتقاليد:

وللوصول إلى مرحلة التطبيق الكامل لهذه المواثيق يتم المرور بثلاث مراحل:

١. التوقيع والتصديق على الاتفاقيات بوسائل إقناع متعددة، من أهمها: ترك المجال مفتوحًا للتحفّظ على أي بند من بنودها.

٢. تطبيق وتنفيذ هذه الاتفاقيات.

٣. الضغط لرفع التحفّظات التي وضعتها الدول على بعض البنود، بدعوى أن حقوق الإنسان كلٌّ لا يتجزّأ، وأنّه في حال كان الدين والعرف هما

السبب في وجود هذه التحفظات فينبغي اتخاذ التدابير اللازمة لإزالتها!

تبقى التوعية أهم سلاح في مواجهة الحرب الشرسة التي تشنها المواثيق الدولية على الأسرة، ومن مجالاتها: تشجيع الزواج وتيسيره، والإعلاء من شأن دور الزوجة والأم داخل الأسرة، إلى جانب التحالفات بين الجهات المعنية بالحفاظ على الأسرة

توصيات الدراسة:

ختمت المؤلفة كتابها بعدد من التوصيات، من أبرزها:

١. نشر الوعي بين الشعوب بخطورة ما تنص عليه المواثيق الدولية المعنية بالمرأة والطفل؛ بهدف تشكيل رأي عام ضاغط باتجاه إعادة النظر فيها أو الانسحاب منها.

٢. نشر الوعي بخطورة الفكر النسوي الراديكالي ومن يمثّله في بلادنا الإسلامية من خلال الوسائل المتنوّعة.

٣. العمل على تكوين تحالف يجمع كل الجهات المعنية بالحفاظ على الأسرة؛ لتكوين جبهة تعمل على حماية الأسرة، وصدّ الهجمة التغريبية الشرسة عليها على كافة المستويات العالمية والإقليمية والمحلية. وقد ذكرت المؤلفة في ثنايا الكتاب أنّ «ائتلاف المنظمات الإسلامية» الذي شارك ممثلوه كمراقبين في مؤتمر بكين +٥ (٢٠٠٠م) قاموا بتوزيع الانتقادات لمسوّدة الوثيقة الختامية على الوفود الرسمية المشاركة، وقامت بعض المنظّمات النصرانية الداعمة للأسرة بأداء الدور نفسه؛ مما كان له دور في فتح النقاش والجدل حول بعض القضايا المحورية التي تم تمريرها في مؤتمر سابق، مما أدّى هذا إلى وصف هذا المؤتمر أنه (بكين -٥) بالسالب؛ لأنّه أعادهم إلى الوراء وعطّل بعض القرارات.

٤. تنقية قوانين الأسرة من كل ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، ونشرها، وإبرازها كبديل إسلامي للمواثيق الدولية.

٥. التوعية بأهمية تشجيع الزواج وتيسير السبل إليه لإنقاذ المجتمعات مما تردّت إليه من ولوغ في الفواحش.

٦. التركيز إعلاميًا واجتماعيًا وقانونيًا على الإعلاء من شأن دور الزوجة والأم داخل الأسرة، وأهميته القصوى في بناء مستقبل الأمم والشعوب.

٧. الدعوة إلى تأسيس مكاتب للإرشاد الأسري ومساعدة الأزواج على تخطي ما يواجههم من مشكلات وأزمات أسرية انطلاقًا من الدين الإسلامي الحنيف.

والحمد لله رب العالمين

ذاك اليوم

أ. رامي أحمد ذو الغنى

ستُدرك أن رصيدك من الأيام قد نفد، والفرصُ لم تعد متاحة، والمسوَّفاتُ لا يد لإنجازها، والفائتُ لا قدرةَ على قضائه، والناقصُ لا يمكن تكميله، إنه خط النهاية، يجتازه الخلق على مراتبهم في الشدّ، وليس من قوانين ذاك السباق أن تعطى وقتًا بدل الضائع.

ستكتشف حينئذٍ قيمة خسارتك، بابتسامةٍ ضننت بها، أو كلمة اعتذارٍ حبستها، أو تمرةٍ بخلت بإخراجها، أو لفظةٍ جرحت قلب سامعِها، أو نية سوءٍ أضمرتها، أو خطوةٍ لقضاء حاجةٍ كسِلت عنها، أو حَومة مِراءٍ جادلت فيها، أو نصيحة حقٍّ كتمتها، أو لمزةٍ أطلقتها، أو همسة بهتانٍ لبريءٍ رميتها.

سيهولك ميزان ذاك اليوم، فإنه يزِنُ بمثقال الذّرّ، وفمُك مختومٌ عليه، وجوارحُك شهودٌ عليك، وما في الصدر مُحصَّل.

ما زال في الوقت متسع، أصلح ما أفسدت، واجبُر ما كسرت، وأكمل ما نقَصت، واستدرك ما فوّتّ، كن شجاعًا وأقر، وتوّابًا ولا تُصِر، وأوّابًا فإلى الله المَفر، من قبل أن يأتيكَ ذات فَجأةٍ المحتوم، فتبلغَ الحلقوم.

«أحسِنْ فيما بَقِي، يُغفرْ لكَ ما سَلَف».

كيف يغيرنا نقد الآخرين؟

أ. عبدالوهاب العمير

هل تقدر أن ترى نفسك بعيون الآخرين؟ من الجيد أن تعرف مستوى أخلاقك وإنجازاتك كما يراها الآخرون، بخاصة المختلفين معك، وأن تخرج من تقييمك الشخصي إلى تقييم الآخرين لك، وكأنك تحلق في فضائهم فترى رأيهم فيك دون أن يشعروا.. إن ذلك أدعى للتحسين وكسر غرور النفس، ودافع من دوافع التعلم وتحري الصواب.

فالناس صنفان: متفقون معك أو مختلفون. فأما المختلفون بحبّ أو حتى الحاقدون أو الناقدون بقصد إفشالك، فهم من يدفعونك للتحسين حقًا، بل هم من يدفعونك للمعرفة اللازمة للإنجاز وتحقيق أفضل النتائج، وإن كنت في وعي من أمر نفسك فسيكون عملك أمام نقدهم مُطعَّمًا بالامتنان لكل من حولك.

وأما المتفقون معك فقد يكونون وقودًا للانطلاق بتحفيزهم وإدراكهم لمختلف أحوالك، وقد تغلب بعضهم عاطفةٌ مزيفةٌ فيصبحون أداة للتثبيط وإخفاء العيوب، فإذا طلبت رأيهم لا تجد إلا المدح الذي يبقيك قاعدًا.

وقبل كل هذا فخالقك ومدبر أمرك هو صاحب الرضا الحقيقي، الذي يعلم السر وأخفى، فاجعل نظرك لنفسك بميزانه هو أولاً قبل أي موازين أرضية قاصرة، لا تملك لك على الحقيقة نفعًا ولا ضرًا.

أصعب الوظائف

أ. معاوية مروان الجندي

يتكلم البعض عن صعوبة أعمالهم ووظائفهم التي يعتاشون من رواتبها أو أرباحها. وغالبًا يكثر الكلام عن صعوبتها إذا أحس الشخص بأن مردود العمل لا يكافئ الجهد المبذول فيه، بل يرى أنه أقل منه، وبالتالي يصبح لهذه الصعوبة –في رأيي– معياران لتحديدها:

- مقدار الجهد المبذول مع ظروف بيئة العمل.
- المردود المادي العائد منه.

بهذين المعيارين أجد أن أصعب الوظائف هي وظيفة الوالدين، فهما يعملان بها من ولادة الطفل وحتى وفاتهما دون انقطاع أو استراحة لمرض وما شابه، مستفرغين فيها ما يقدران عليه من العناية والرعاية والتربية، بالإضافة للعاطفة المتمثلة بالمحبة القلبية والتمنيات بالحياة السعيدة الهانئة، والتي تترجم إلى التفكير الدائم في شؤونه وحياته وصحته وحتى حياة أبنائه كذلك، كل هذا بجانب صراعهما مع ظروف الحياة والمعيشة والوظيفة لتوفير الأسباب المادية التي تضمن للطفل الحياة المريحة الرغيدة.

ومن عظيم فضل الله للمسلمين أن وعد الأبوين المحسنين لأبنائهما بالأجر العظيم في الآخرة وكذلك جعل للأبناء طرقًا سهلة للبر بهما وإعلاء درجاتهما، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

قيام الليل وحُسن الوجه

أ. محمد زهري النشيواتي

قيل للإمام الحسن البصري رحمه الله:

ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟

قال: «لأنهم خلَوا بنور الرحمن في الظلمة فألبسهم نورًا من نوره»[١].

وقال الشيخ عطاء الخرساني رحمه الله:

«قيام الليل محياة للبدن، ونور في القلب، وضياء في البصر، وقوة في الجوارح، وإن الرجل إذا قام من الليل يتهجد أصبح فرحًا يجد فرحًا في قلبه»[٢].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ترى الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة... ولا سيما إذا رُزِق حظًا من صلاة الليل فإنها تنوّر الوجه وتحسّنه»[٣].

(١) عيون الأخبار، لابن قتيبة (٣٢٢/٢).
(٢) مختصر قيام الليل، للمَرّوذي، ص (٦٦).
(٣) روضة المحبين، لابن القيم، ص (٢٢١).

فَلَوْلا نَفَر

د.خير الله طالب

تصوير بديع لمجتمع المدينة حال نفرته للجهاد، تحكيه سورة التوبة كأنك تراه، فترى المتصدق بملئ كفه غيرَ آبه بسخرية المنافقين، وتشهد الفقراء الراغبين في النفير وأعينهم تفيض من الدمع، وبين الصورتين مشاهد حية تعبر عن استجابتهم لقول الجليل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ومع تلك الهبّة يأتي الميزان: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

ترى ما الشيء الذي يستحق تلك النفرة، وبكل ما تحمله كلمة (نَفَرَ) من: اندفاع جادّ وتفرغ لما نُفِر إليه؟ إنها نفرة إلى التعلم والتعليم تعلمنا توأمة الميدان العَملي مع الميزان العِلمي. وقوام الدين وحي يقود وسلاح يذود ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، و«إن اتساعَ الفتوحِ وبسالةَ الأمةِ لا يكفيان لاستبقاءِ سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان»[١].

إذا استحضرنا اليوم ضعف مخرجات التعليم عمومًا، وحالة الهشاشة الثقافية والشتات المعرفي، والحرب المستعرة على الهوية والفطرة، ولاحظنا التوسع المستمر في المجالات الحياتية، ونمو التخصصات الدقيقة في مجالات العلوم التطبيقية والإنسانية التي تخدمها جيوش من الكوادر والنظم والمؤسسات الأكاديمية والرسمية، بما لا تحظى بعشر معشاره العلوم الشرعية كمًّا وكيفًا.. وبالنظر إلى الأهمية العليا لعلوم الوحي في معاش الناس ومعادهم، فإن الواقع في هذه القضية أصبح معكوسًا يتطلب نفرة جماعية وفردية جادة لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

تفطن أحد المفسرين في هذه الآية إلى حل استراتيجي لهذه النفرة العلمية العملية، قائلاً: «وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور»[٢].

حل يفتح باب الطموح في مجال تعلم الدين وتعليمه ونشره عن طريق التخصص ليس في المجال فحسب، بل على مستوى الفرع والتخصص الدقيق والفئة المخاطبة والبلد المستهدف، على نحو من تخصص الشيخ ديدات والشيخ ذاكر في دعوة النصارى، وتخصص آخر في تعليم الفاتحة، وجمعية تخصصت في الدعوة إلى الصلاة، ورابطة تخصصت في الخطيب دون غيره. ولعل كثيرًا من الطلبة إنما عرف البخاري والشافعي والشاطبي بكتبهم الفريدة: الصحيح والرسالة والموافقات.

كما يتسع أفق ذلك الحل إلى تقاسم ذلك التخصص الدقيق جدًا بين أكثر من شخص أو جهة، في تعاون تكاملي يذكرنا بحديث: (إن الله عز وجل يُدخلُ الثلاثةَ بالسهمِ الواحدِ الجنةَ: صانعَهُ يحتسِبُ في صَنعتِه الخيرَ، والمُمِدَّ به، والراميَ به)[٣].

من شأن هذه (التخصصية الدقيقة) تحقيق الإتقان، وصولاً إلى (المرجعية التخصصية) التي يستفيد منها حتى من هو أعلم منه ممن لم يتخصص مثله. ولعلها تكون ممهدة لعلاجات عميقة لحالة التشرذم والتفرق، حينما يصمت من لا يعلم عما لا يعلم، ولا يتكلم أحد إلا فيما يحسن، وحينما تبدو خريطة التكامل واضحة لمن يلحظ الصورة الكلية الشاملة ويرغب في مساندة المتخصصين وخدمتهم بما يكمّل أعمالهم، ويكامل بين جهودهم، ويحوِّل طاقاتهم من ساحات الازدحام والتنافس، إلى مساحات الثغور والفرائض والتكامل.

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور(١١-٥٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص (٣٥٥).
(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٠٠)، وحسنه المحقق بمجموع طرقه وشواهده.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

أكاديمية
تأصيل الوعي

قريبًا في
أكاديمية تأصيل الوعي

» دبلوم النظام السياسي الإسلامي

www.islamicsham.org
islamicsham2 islamicsham
هيئة الشام الإسلامية